

رحلة باستيت الأخيرة

رحلة باستيت الأخيرة

رواية

حامد عبد الصمد

(c) دار ميريت

٣٢ شارع صبري أبو علم، القاهرة

تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)

www.darmerit.org

merit56@hotmail.com

الغلاف: سعاد عبد الرسول

المدير العام: محمد هاشم

رقم الإيداع: ٢٠١٨/٩٩٩٩

الترقيم الدولي: 978-977-351-???-?

حامد عبد الصمد

رحلة باستيت الأخيرة

ميريت
القاهرة ٢٠١٨

إهداء

إلى القطة التي أنارت ببريق عينيها طريق حياتي وعلمتني أن
الحب هو الطريق!
إلى كل من يحلمون -مثلي- أن يروا العالم بعيني قطة!

قال المهر للبحر: أنت مني.. جنّتُ حاملاً إليك نفسك..
قالت الريح للسحاب: في البدء كان الحنين..
قال الحب: قفزة القطة صنعت كل الفرق!

كانت باستيت تشم رائحة ساحرة ولكنها مألوفة لها. لم تكن رائحة الشامبو المنبعثة من شعر نورا ولا رائحة جلد ساعة أشرف الجديدة، بل رائحة من زمن آخر خرجت مباشرة من راديو السيارة مع موجات صوت المغنية.

"بعيد عنك ... حياتي عذاب
ما تبعدنيش بعيد عنك
ماليش غير الدموع أحباب
معاها يعيش بعيد عنك"

ومع كل جملة من الأغنية كانت رعشة جميلة تدب في عظام باستيت. شعرت نورا بارتعاش باستيت الرقيق فوق كتفها، فراحت تمسح بيدها على فروتها وهي تسألها: "بردانة يا حبيبتي؟". طلبت نورا من والدها الذي يجلس بجوارها ويقود السيارة أن يغلق مكيف الهواء، ففعل.

- طيب نرلي إزاز العربية شوية يا حبيبتي عشان ما تدوخيش زي المرة اللي فاتت. لسه الطريق طويل. قالت رشا الجالسة في الكرسي الخلفي للسيارة وهي منهمكة في وضع لايكات وقلوب على تعليقات المعجبين على إحدى صورها على "إنستجرام".

- الحمد لله تفاعل الجمهور مع المسلسل هائل يا أشرف. معظم الناس يقولوا انه أجمد مسلسل في رمضان السنة دي.

- كدا من أول يومين؟! طيب والله كويس. قال زوجها وهو يحاول اصطناع شيء من الاهتمام.

- بس فيه بنت حرباية بتسألني: معقولة جوزك جزّار تجميل وانتِ ما عملتيش ولا عملية واحدة لحد دالوقتي؟! حلو جزار تجميل دي.. ورديتي قلتي لها ايه؟

- حبيبي أنا ما باردش على أسئلة من النوع دا. دا مش مستوايا. تلاقيه أكوانت فيك بتاع ممثلة نص كُم غيرانة مني عشان ليا أعمال في رمضان وهي لأ.

- طيب بمناسبة الجزائر.. هأبقى أنزل اشتري لحمة من السلخانة في طريقنا.

- معقول يا أشرف.. عدّينا في الطريق على كارفور و ١٠٠ سوبر ماركت محترم، وعايز في الآخر تشتري لحمة ملموم عليها الدبّان في السلخانة؟ وبعدين السلخانة مش في طريقنا.

- يا ستي من فات قديمه تاه.. انتِ نسيتي إني من السيدة زينب ولّا ايه؟ وبعدين اللحمة اللي في كارفور برضو جاية من السلخانة. أو مال يعني دبحوها فين؟ والجزار دا بالذات أنا متربي على لحمته، وأديني أه زى الفل.. ثم عادل أخويا هو اللي موصيني أجيبه اللحمة معايا.

- براحتك. ويا ريت توطي الراديو شوية عشان مصدّعة. قالت رشا وواصلت الانكفاء على هاتفها المحمول.

نامت نورا بينما باستتيت تشبّ من فوق كتفها لتراقب الشوارع الغريبة وتشم الروائح الجديدة. فهي منذ أيامها الأولى لم تغادر

الكومباوند الذي يعيش فيه أشرف ورشا إلا لزيارة الطبيب البيطري أو للذهاب مع العائلة للتسوق من كارفور الملاصق للكومباوند. مرت السيارة ببحر من المقابر يحاصرها جبل المقطم من ناحية وبيوت متواضعة غير منتهية البناء من ناحية أخرى، ثم دخلت إلى شوارع مصر القديمة. كانت باستيت تراقب دوران عجلات السيارات وتنصت لقرقعة أحذية المارة على الطريق، وتشم ألف رائحة منبعثة من أكياس القمامة الملقاة أمام البيوت والدكاكين. رأت صديقاً يطرق بمطرقة فوق قطعة حديد ملتبهة أمام ورشة. شعرت بانطمار قُرب في التراب على جانب الطريق، راقبت انعكاس الشمس على زينة رمضان، وسمعت نداءات باعة متجولين تتقاطع مع أبواق السيارات. شمّت رائحة خبز طازج وعشرات الأنواع من الفاكهة والخضراوات. مئات الأصوات والروائح مرّت على باستيت في ثوانٍ معدودة. خلف كل صوت وكل رائحة كانت باستيت ترى مائة لون وتسمع ألف قصة. وعلى عكس البشر كانت باستيت لا تشم ما آلت إليه الأشياء فقط، بل تشم أصلها، فورشة الحداد منجم حديد وعامل مجهد، والقرط أذن امرأة تشتاق لحبيبها، والحذاء بقرة وحبل وسكين. كل حبة فاكهة قطعة من الشمس، وكل رغيف سنابلٌ صفراء وأرض سوداء وعرق فلاح ونهر قادم من وراء الزمن. كانت باستيت -التي لم تعرف شيئاً خارج أسوار الكومباوند- تتعجب من أين جاءت بكل تلك المعرفة.

"افتكر لي لحظة حلوة عشنا فيها للهوا"

ما زالت رائحة صوت أم كلثوم الخافت تجمع كل الروائح وكل الألوان في حزمة واحدة وتزيدها سحرًا. وما زالت الرعشة تدب في جسد باستيت مع كل جملة رغم تدفق الهواء الساخن من الشباك المفتوح قليلاً. دخلت السيارة في شارع مليء بمحلات الجزارة على اليمين واليسار وبين كل محل ومحل نساء يجلسن وأمامهن أوعية كبيرة بها أمعاء البقر وسيقانها المبتورة غارقة في الدماء. توقفت السيارة أمام محل كبير. نزل أشرف ودخل المحل وراح ينظر يمينًا وشمالًا باحثًا عن صاحب المجزرة.

- رقية ولأ موزة؟ قال صاحب المحل ضاحكًا ثم استطرد:

- كدا يا دكتور ما نشوفكش غير م السنة للسنة؟

- عارف اني مقصر معاك يا حاج صبحي، بس مشاغل والله.

- ربنا يعينك يا دكترة! ع العموم كل سنة وانت طيب.

- اتنين كيلو م الموزة وحبش لنا شوية حلويات، قلب على فشة على كرشة لو عندك.

- والله لسه نفسك حلوة يا دكتور. فشة وكرشة في رمضان يا راجل؟ وهي المدام بتعرف تطبخ الحاجات دي؟ دي تقريبًا نجمة سينمائية.

- هاهاها.. تقريبًا؟ طيب اوعى تسمعك بقى ليبقى يوم نكد. لا

يا سيدي.. مرات أخويا بتعرف تطبخها.. أصلها من الوراق.

- احنا تحت أمرك. ارتاح حضرتك. خمس دقائق وتكون الطليبة جهزت.

راحت باستيت تراقب العجول المسلوخة المعلقة أمام المحل ودققت النظر في الأختام الحمراء الموشومة على جسدها. ثم

حولت نظرها إلى رعوس العجول المتراصة على جذع شجرة مبتور. كانت عيون البقر جاحظة ومترقبة وكأنها لا تزال تتشبث بالحياة. اقترب صبي من صبيان المحل من أحد الرعوس وفي يده ساطور. كانت باستيت تتساءل ماذا عساه أن يفعل بالرأس بعد أن ذبح وغُسل وغُرِض على الملاء. انهال الصبي ضرباً بالساطور على الرأس حتى صار شرائح متساوية. وكانت باستيت لا تزال تراقب العينين وقد أخذتا مكانهما بسلام داخل لفافة من الورق المقوى سلمها الصبي لأحد الزبائن. كل أسرار البقر والبشر بدت مكشوفة للعلن في مشهد واحد. رائحة قسوة الوجود كانت تفوح من المكان، رائحة تشبه رائحة "أوستيك" ساعة أشرف الجلد.

خرج صبي آخر من المحل وألقى بقايا رثة وشغت وقليلًا من الدم على الأرض أمام المحل فتجمع حولها قطع من القلط النحيلة وانهالوا عليها أكلاً. كانت هذه أول مرة ترى فيها باستيت هذا الجمع الهائل من بني جنسها. ساقها الفضول أن تعرف ماذا يأكل هؤلاء القلط. حشرت رأسها في المسافة الضيقة بين زجاج الباب وسقفه، ثم حررت باقي جسدها وقفزت من السيارة. توجهت نحوهم بخطوات ثابتة كأنها تفعل ذلك كل يوم. وما إن وصلت إليهم حتى صرخوا فيها وحاصروها داخل دائرة مغلقة وهم يراقبونها كأنهم يتساءلون ما الذي جاء بقطة بيضاء نظيفة تبدو عليها علامات الشيع إلى هذا المكان. توقف أحدهم عن لعق الدماء واقترب منها وراح يشم مؤخرتها كي يعرف من أين جاءت. وقف فجأة على ساقين وانقضَّ على بطنها بمخالبه وهو يصرخ فسالت منه الدماء.

فقدت باستيت توازنها وسقطت وهي تحاول الفرار. تعقبها أربعة قطط حتى فرت إلى زقاق جانبي. عند منتصف الزقاق لمحت بيئاً أزرقاً فأصابها الذعر وازدادت آلام بطنها الدامي. أسرعت الخطى وهي تمر على البيت لكنها شمّت رائحة نفاذة لشعر محروق وسمعت صرخات رجال ونساء تنبعث من البيت. ففرت باتجاه زقاق جديد ولكنها كانت تشعر بالبيت الأزرق يتعقبها بخطوات ثقيلة ويحاول اللحاق بها. شمّت فجأة رائحة صوت أم كلثوم مرة أخرى فدخلت في الشارع الذي جاء منه الصوت وقد هدأت أنفاسها بعض الشيء، ولكن آلام بطنها كانت لا تزال تزعجها. سمعت نفس الأغنية:

"كنت باشتاق لك وأنا وانت هنا.. بيني وبينك خطوتين..."

هرولت باستيت نحو مصدر الأغنية موقنة أنها ستقودها إلى سيارة عائلتها. وصلت إلى محل كشري لا يأكل فيه أحد ولكن يخرج منه أطفال حفاة يحملون أكياساً منتفخة. وقفت حائرة أمام المحل وقد تأكدت أن الأغنية قادمة منه.

"والأمل.. أنت الأمل.. تحرمني منك ليه"

رأت أمام المحل قطاً أسود يأكل بقايا الكشري الملقاة على يمين الباب ويدير لها ظهره. توقفت مكانها خوفاً من أن يكون قطاً عدوانياً مثل الذين هاجموها عند مدخل الحارة. فجأة توقف القط عن لعق صلصة الكشري واستدار فرأى باستيت حائرة ودامية أمامه. توجه إليها مباشرة ووقف أمامها. شيء ما شد أقدام

باستيت برباط قوي إلى الأرض فلم تتراجع. شيء ما جعلها لا تخاف من القط الذي أطال النظر إلى عينيها وكأنه يتذوق فاكهة لذيذة نادرة الطعم ولكن في نهاية مذاقها علقم. أما هي فكانت ترى في عينيه تاريخاً طويلاً من الحزن والألم. ألهها حزن عينيه عن جرحها لوهلة. نزل القط بعينه قليلاً فرأى بطنها الذي كانت تسيل منه الدماء. مدّ لسانه دون أن يتردد وراح يلحق الجرح. كان طعم دمها مألوفاً له، ولكن رائحته كانت - مثل عينيها- تجمع روائح كثيرة من عوالم أخرى بعيدة. أحس بألم مفاجئ في رأسه ولكنه تغاضى عنه وواصل لعق دمها.

"وفين أنت يا نور عيني.. يا روح قلبي فين"، كان صوت أم كلثوم ما زال يملأ الأجواء.

- انت اسمك ايه؟ سألت باستيت بصوت خافت وعينين مغمضتين.
- اسمي؟! القطط هنا مالهاش أسماء.
- طيب البني آدمين بيندهوك بيقلوا ايه؟
- محدش من البني آدمين هنا فاضي ينده على قط. مفيش غير صاحب المحل دا بيناديني يقول لي يا كشري عشان باكل كشري كتير.
- طيب أنا هاقول لك يا كشري لحد ما تختار اسم ثاني يعجبك.
- فجأة كان لاسمه رنين جميل في أذنيه حين نطق به لسانها.
- انت بتعملي ايه هنا؟

- مش عارفة. أنا لازم أرجع. ممكن ترجعني للعربية بتاعتي؟
قالت باستيت.

- فين عربيتك دي؟

- عند المكان اللي ريحته دم.

- طيب شكها ايه؟

- زي لون عيوني.

نظر إلى عينيها مجددًا وقال:

- بس انتي عيونك فيها ألوان كتير. زرقا زي البحر، ورمادي
زي السحاب وصفرا زي القمر. أنا ما شفتش عيون زي دي
قبل كدا.

- بس ليه أنا حاسة اني شفت عيونك قبل كدا؟

أطالت باستيت النظر إلى عينيها من جديد حتى تحرك وسار
أمامها نحو محل الجزارة. سارت خلفه وهي تراقب جسده
النحيل الذي لم يعد فيه موطئ لجرح جديد. لم تكن تدري إن
كانت تشعر بالشفقة تجاهه أم بالتماهي مع جروحه.. مشاعر
مختلطة غريبة انتابتها وهي تتأمل جسدًا مستسلمًا لآلامه، لكنه
يمشي بشموخ وكبرياء. نسيت آلام بطنها وراحت تتخيل كل
المعارك التي خاضها جسده. ولكن الحقيقة كانت أسرع من
الخيال. فجأة ظهرت عصابة القطط مرة أخرى، فغير كشري
مساره بهدوء وطالب باستيت بالرجوع معه. هرول القطان بين
الأزقة هربًا من القطيع وبحثًا عن سيارة زرقاء. لم تلمح
باستيت أي خوف في عيون القط ولكن تصميمًا ألا يعترض
طريق القطط الأخرى وألا يتورط معهم في معركة جديدة.

خرج أشرف من محل الجزارة يحمل لفافتين توجه بهما إلى
حقيبة السيارة ودسَّهما في صندوق صغير وغطاهما بالثلج.
دخل السيارة فوجد نورا ورشا تغطان في نوم عميق. حشر
المفتاح في ثقبه وأداره لليمين فعاد صوت أم كلثوم للحياة في
آخر كلمات الأغنية: بعيد عنك.

رغم استعجال باستيت الخروج من الزقاق للبحث عن سيارتها، فإن كل شيء في الطريق كان يستوقفها وكان كشرى صبوراً معها. كان يقف إلى جانبها دون أن يطرح عليها الأسئلة ولا أن يحثها على متابعة السير. كان يتأمل ملامحها بصمت وهي تتأمل الأشياء التي حولها بانبهار وتواضع. كانت باستيت قليلة الكلام مع أن رأسها مليء بالتساؤلات. فهي لم تر شيئاً في حياتها تقريباً سوى الحقائق الداخلية للكومباوند وغرف ذات حضور بشرى منظم جداً، ولكن كل شيء في الزقاق كان يذكرها بشيء تعرفه.

كان الغسيل المتدلي من الشرفات وفوانيس رمضان المزركشة تستوقفها. كتلة من البشر تزدهم أمام فرن بلدي لشراء الخبز. علبة من الصفيح بها ثقب ترسم دوائر من العجين السائل على سطح من الصفيح الملتهب. دجاجة ذات عُرف أحمر مهتر كانت تراقب باستيت بعين صغيرة مستديرة وتحقق فيها من جانب واحد وكأنها ترى عبر جسدها وتجتازه إلى عالم آخر. كان كشرى يراقب دهشتها وهي تدرس كل ركن وكل لون في الزقاق، وكان أكثر ما يدهش باستيت هو المشاجرات بين القطط والقطط الشاردة لم تكن تملك سوى التقاتل كطريقة للوجود والاستمرار. كانت القطط تتقاتل عند المنعطف المؤدي إلى دهليز قديم لمغازلة قطة أو لتناول بقايا طعام بشرى أو للاستفراء ببقعة مريحة.

وقفت باستيت تراقب ثلاثة قطط يشتبكون في معركة شرسة استمرت لبضع دقائق، وهذه المرة أيضاً لم يقطعها كشرى إلا حين رأى عينيها تتسعان والرعب يموج فيهما.

- انتِ ما شفتيش قَط بتتخايق قبل كدا؟

- لا.

بقيت باستيت صامتة ومجروحة. وبدا كل قط من هذه القطط يقول بطريقته: أريد أن أعيش.

- صعب إنك تستمري في العالم دا إلا لو عملت زيهم. أكمل كشري.

- ويا ترى انتِ بتعمل زيهم؟

ابتسم كشري ابتسامة تملأها المرارة وقال: عارفة ببسموني كشري ليه؟ مفكرين إني باحب الكشري، بس في الحقيقة أنا ما باحبوش. بس عشان أحصل على أكل ثاني لازم أحارب ولازم أكون جزء من قطيع يحارب قطعان ثانية.. أنا ما باحيش أحارب وما باحيش أتبع حد، عشان كدا مش فاضل لي غير الكشري.

- طيب ليه قاعد في الحي دا؟ واضح أن القطط مش بتسيبك في حالك رغم أنك مش بتخطف منهم قوت ولا مرقد!

- احنا رغم كل الشقا دا ما زلنا قادرين على صنع أقدارنا. الهروب قرار والبقاء قرار أصعب. وأنا قررت البقاء. ما كانش قرار حتى. كل ما كنت أفكر أمشي كان صوت جوايا بيقول لي "ما تمشيش!"

- انتِ على فكرة ما سألتنيش اسمي ايه وعايشة فين؟

- وهاستفيد ايه من معرفة اسمك بعد ما عرفت طعم دمك؟

- اسمي باستيت.

- باستيت؟ سأل كشري وكان هذا الاسم فتح أمامه بوابة لم يكن يريد أن يدخل منها.

-
- بس انتِ مش شبه باستيت؟
- انتِ تعرف المعبودة باستيت؟
- مفيش قط ما يعرفهاش.
- أنا ما اعرفهاش بس نفسي أشوفها.
- مش بالسهولة دي.
- ليه؟
- لأنك محتاجة قربان عشان تدخلي معبدها في منف أو تلبس.
- قربان ايه؟
- قط ميت ومتحنط.
- شعرت باستيت بمرارة شديدة في حلقها عند سماع ذلك وهزت رأسها مستنكرة:
- ما افكرش باستيت إلهة الحب والخير محتاجة مننا قرايين.

واصل كلاهما السير في اتجاه محل الجزارة. مرًا بالبيت الأزرق وهما يسرعان الخطى ويتجنبان النظر إليه. وقفا أمام المحل الذي همَّ العاملون فيه بإغلاقه. لم يكن هناك قطط ولا سيارات، راحت باستيت تدور حول نفسها في دائرة محكمة وكأنها تُعد نفسها لمواجهة حقيقة أنها الآن تائهة. مشت بخطوات تثقلها خيبة الأمل وأسندت ظهرها إلى حائط دكان الجزارة. اقترب كشري منها بحذر وجلس بجوارها دون أن ينطق بكلمة. نظرت إليه فرأت في عينيه أبعادًا جديدة للحزن. كانت تدرك منذ أن التقت به أنه جاء إلى هذا العالم حزينًا، ولكن موجات الحزن التي تحركت الآن في عينيه كانت جديدة.

كانت من أجلها هي. كانت باستيت تتساءل لماذا يتبعها هذا القط بكل هذا الحنان دون أن يحاول مغازلتها ودون أن يريد منها شيئاً. أما هو فكان يسأل نفسه لماذا تكسره نظرة الحزن وخيبة الأمل في عيني باستيت وهو لم يرها إلا منذ قليل. حاولت باستيت أن تشتت الحزن في عينيه فغيرت الموضوع:

- أنا جعانة.

- تعالي نشوف هتاكلي ايه. الأيام دي معظم المطاعم بتقفل في النهار.. مفيش غير الكشري.

- وايه الكشري دا بالطبط؟

- رز ومكرونه وعدس أسود وصلصة طماطم مع دقة ثوم وخل وفلفل حار.

- لا شكرًا.

في هذه اللحظة مرّ قط يحمل فأراً ميتاً بين أسنانه. نظر كشري إلي باستيت متسائلاً: "لو عايزة ممكن نروح نصطاد!"

- لا بلاش. نجرب الكشري أحسن.

نبتش كشري كيس القمامة أمام المحل بمخالبه فسقطت منه بقايا الكشري. وقفت باستت تشم الوجبة الغريبة وقد بدا عليها الامتعاض. أكلت بعض المكرونة ثم بصقتها. فصلت بعض حبات العدس وأكلتها ولعقت بعض الصلصة فصرخت من حميتها:

- طيب هو انتي متعودة تاكلي ايه؟

- باكل جمبري مسلوقة أو أكل مخصص للقطط ببيجي في علب من كارفور.

- انسي موضوع الجمبري دا خالص. دا حتى البني آدمين مش
لاقبينه هنا. وكمان أقرب فرع لكارفور من هنا في جبل المقطم.
مشوار بعيد.

- مش مهم بعيد.. أنا باحب أمشي!

توقفت السيارة أمام بناية كبيرة في حي المهندسين. أيقظ أشرف
زوجته وابنته. تتأببت نورا قليلاً ونظرت حولها ثم وضعت
يدها على كتفها صارخة: باستيت. بحثت تحت المقعد ولم
تجدها فازدادت توترًا.

- أشرف، القطة فين؟! صرخت رشا وهي تبحث تحت مقاعد
السيارة.

- الظاهر نطت من العربية واحنا في السلخانة.
وضعت نورا يديها على وجهها بينما تطايرت شرارات
الغضب من عيني رشا:

- آدي آخرة التسكع في الحواري. انت ازاي يا بني آدم تخرج
من العربية وتسبب شباكها مفتوح. لو مش خايف على القطة
خاف على بنتك في منطقة لبش زي دي!

انفجرت نورا في بكاء شديد وقالت: لأ.. ماليش دعوة.. أنا
عايزة باستيت.

وعدها أشرف أن يتوجه معها إلى السلخانة بعد الإفطار لأن
شقيقه ينتظره، لكن نورا أصرت على العودة للبحث عن باستت
فورًا.

الجبل الذي تدين له القاهرة ببيوتها وقصورها وقلاعها لم يجد من يحميه من زحف الفقر على جسده. "العشوائيات"، "العشش"، "الزرايب"، "مدينة الموتى": هكذا يسمون الأحياء التي بناها أناس حول الجبل وفوقه بعدما لم يجدوا في القاهرة مكاناً آخر يتسّر على فقرهم وقلة حيلتهم. أناس ينظرون إلى القاهرة من أعلى إلى أسفل كل يوم، لكنهم يشعرون أن القاهرة هي التي تنظر إليهم باستعلاء. بعضهم يرى في الارتفاع منفى، وبعضهم يراه ملتجأً من عيون تصنف الناس حسب ما يمتلكون. ينزلون من الجبل كل يوم ل يبحثوا عن فتات الرزق في القاهرة ثم يتسلقونه عشية للعودة إلى أوكارهم. وبعض العشاق القاهريين يصعدون الجبل بسياراتهم كي يتعدوا عن عيون الوشاة والمتطفلين فيهنأوا بدقائق معدودة من الخلوة تبخل بها عليهم معظم الأماكن في العاصمة.

الصعود تجربة جديدة تمامًا لباستيت، لكنه رغم صعوبته يلامس شيئاً ما بداخلها. كشرى يعرف الطريق جيداً لكن إحساسه به اليوم يختلف عن كل مرة. لم يكن يسرع الخطى كعادته بل يبدو سكران يترنح عن يمين باستيت تارة وعن شمالها تارة، يقودها مرة ويمشي خلفها مرة. يتبادلان النظرات من كل الجهات ولا يقولان شيئاً. كان يشعر وكأنه يصعد إلى السماء، ولكنه لم يكن ينتظر من السماء شيئاً، لأن بجواره كل شيء يحتاجه. بعد مسيرة ساعة توقفت باستيت وقد أرهاقها طول الطريق. جلس كشرى بجوارها ولم يقل شيئاً. وبعد قليل سمعا أصوات خطوات لها إيقاع موسيقي أثارت فضول باستيت، لكن بدا من وجه كشرى أنه يعرف الصوت جيداً.

اقتربت عربة محملة بأكياس كبيرة للقمامة يجرها حماران بدا من رشاقة خطواتهما أنهما متمرسان في صعود الجبل، وبدا أن الجبل أيضًا اعتاد رنين خطواتهما. خلف الحمارين جلس صبيان في نهاية سن المراهقة، شد أحدهما لجام الحمارين حين رأى كشري على قارعة الطريق.

قفز كشري فوق العربة وانتظر باستتيت وهي تنظر إليه من أسفل لأعلى وشمس العصر تضيء على عينيها بريقًا جديدًا. قفزت وجلست بجواره فوق كيس قمامة في المؤخرة. جلسا في عكس اتجاه السير وراحا يراقبان الطريق.

- إزيك يا خشبة ما حدش بيشوفك من زمان ليه؟ أيوه يا عم من لقي احبابه نسي صحابه. يا نمس انت! قال سائق العربة الكارو لكشري، وهو بيتنسم، ثم ضرب الحمارين بالسوط الذي في يده فأسرعا الخطى من جديد.

- انت اسمك كشري ولأ خشبة؟

سألت باستتيت بصوت خافت.

- أهو البني آدمين كلهم كدا. بيسمونا أي أسماء وخلص. سمعان شافني مرة باقرقض حنة خشبة في حي الزبالين فسماني خشبة، وابن صاحب محل السمك بيسميني بساريا. شيء سخيف ان البني آدمين بيسمونا حسب الأكل اللي بناكله. طيب احنا لو سميناهم باسم أكلهم نقول عنهم ايه؟ "عجل" أو "معزة" أو "فول" أو "بصارة" أو "رز بالشعرية"؟ إزيك يا كوارع عامل ايه؟ بنت يا ملوخية بالأرانب ما تلعبيش في الشارع!

- فعلاً.. البشر فاكرين إنهم يعرفوا احنا مين وبنحب إيه، بس في الحقيقة هم نفسهم مش عارفين هم مين وعايزين إيه. رشا مثلاً بتحب تلبسني ملابس زي البني آدمين رغم ان القطط ما بيحبوش شيء يلاصق جلدهم أبداً. وكمان بتلبسني طواقي شكلها غريب على راسي. دا غير إن طريقة أكلهم غريبة جداً. مش قادرة أفهم إزاي بياكلوا وراسهم مرفوعة. مفيش كائن بيعمل كدا غيرهم. مرة أشرف قعدني على الخشبة اللي بياكلوا عليها ومسكني من رقبتني، وكان بيرفع الأكل لحد بقّي بالأداة المعدنية اللي بياكلوا بيها عشان آكل وكان مستغرب أنا ليه ما بامدّش راسي وآكل زي هو ما بياكل. ما كانش فاهم إن القطة لما راسها تكون مرفوعة ما بتعرفش تحرك رقبتها. وكمان مش فاهم إننا بنحب نحني راسنا واحنا بناكل عشان نشم الأكل ونعرف بناكل إيه وعشان كمان نشم الأرض ونقول لها شكراً على كل شيء بناكله. الكائن اللي بيحط الأكل على خشبة وبياكل وهو مرفوع الراس أكيد لا يفهم معنى التواضع أو الامتنان.

- عندك حق. بس مأساة البشر مع الأكل والشرب أكبر من كدا بكثير. أنا مرة كنت ماشي برا السلخانة وسمعت صوت عجول بتصرخ وبشر ببيضحكوا. دخلت لاقيتهم بيجروا عجول كثيرة ومكتفينها عشان يدبحوها والعجول كانت بتحاول تفلت وما بتقدرش، وبعدين كانوا يرموا عجل على الأرض ويشلّوا حركته ويدبحوه، فيفضل دقايق ينتفض من الألم ودمه ببسيل، وباقي العجول كانوا وافقين يتفرجوا وهم مليونين رعب عشان عارفين ان الدور عليهم، ومع ذلك البشر كانوا واقفين

بيضحكوا كأنهم انتصروا في معركة. سألت نفسي البشر
ببعملوا كدا ليه؟

- عشان ياكلوا. زي القوط ما بتقتل الفيران والكتاكت عشان
تاكل، وحيوانات تانية بتعمل كدا. قالت باستيت.

- أيوه القوط بتقتل فار عشان تاكله، بس مفيش قط بيقتل ١٠٠
فار ويسلخهم ويقطعهم ويحطهم في التلاجة عشان كل ما يجوع
ياكل واحد. مفيش قط ببسلخ الفيران ويعلق جثثهم في الشارع
عشان قوط تانية تيجي تشتريها بورقة أو ورقتين. فكرة إن
حياة الكائنات بيبقى تمنها ورق مؤلمة جدًا.

- تفكر الأكل هو مشكلة البشر؟

- البشر كلهم مشاكل. بس مشكلتهم مع الطبيعة والكائنات هي
إنهم مش شايفين نفسهم كجزء من الأرض وإنما فاكرين إنهم
سادتها. بيقطعوا الحجارة من الجبل عشان بينوا بيوت وما
بيقولولوش شكرًا، بيقطعوا الشجر عشان يتدفوا بيه وما
بيقولولوش شكرًا. وبيقتلوا الكائنات مش بس عشان ياكلوا،
وإنما عشان يكسبوا ورق.

- تفكر مشكلة البشر ممكن تتحل لو الورق دا اتلغى؟

- أكيد مشاكل كثير ممكن تتحل لو الورق دا مش موجود. كدا
اللي محتاج خدمة لازم يقصد قصادها خدمة، واللي محتاج أكل
لازم يقصد قصاده أكل تاني. لكن طول الورق دا ما هو موجود
هيبقى فيه قتل أكثر وحروب أكثر وفقر أكثر، لأن اللي معاه
ورق ببشترى بيه منتجات وكمان كائنات تانية. حتى البشر بقوا
سلع وبشر تانيين ببشتروهم. بس حتى قبل اختراع الورق
البشر كانوا بيقتلوا بعض وكانوا بيبغصبوا الطبيعة.

- يعني مشكلة البشر مش بس البيع والشرا؟
- ممكن تفهمي مشكلتهم من تاريخهم مع القطط. في العصور القديمة البشر كانوا بيعبدوا القطط، عشان كانوا بيثوفوا في عيونها حكمة وحب، وعشان القطط كانت بتحمي مخازن القمح من الفيران. في العصور الوسطى البشر حرقوا القطط أحياء عشان كانوا بيعتقدوا إن الساحرات كانوا بيستخدموا القطط في الشعوذة. من هنا بدأت المأساة. بعد قتل القطط انتشر مرض الطاعون، لأن القطط كانت بتاكل الفيران اللي هي سبب نشر الطاعون. فبطلوا يحرقوا القطط، مش احتراماً ليهم وإنما عشان محتاجينهم. في العصر الحديث البشر ابتدوا يشتروا القطط بالورق. سرقوهم من حياتهم الكبيرة وحبسوهم في حياة مملّة عشان يسلوهم ويحسّسوهم إنهم سادة. وفيه بلاد بيدبحوا فيها القطط وبياكلوها، وفيه بلاد بيصوروا القطط كأنهم بهلوانات ويضحكوا عليهم. بس برضو لسه فيه ناس بيحبوا القطط وبيفهموهم.

- طيب ايه اللي غير البشر كدا؟

- الخوف. الخوف دا هو المادة الخام لكل المشاعر السيئة. الطمع والغرور والكرهية والعنف كلهم مصدرهم الخوف. وكل ما الإنسان يخاف أكثر، يتغابى أكثر.

- طيب وهم خايفين من ايه؟

- هم نفسهم مش عارفين مصدر خوفهم.

- طيب انت تعرفه؟

- خايفين عشان بعدوا عن أصلهم. تاهوا. واللي تايه بيخاف إن كل خطوة بياخذها بتبعده عن بيته أكثر. التايه بيفقد الثقة في

الحياة وفي اللي حوالية، وبيبقى عايز يمتلك كل شيء إيده تقع عليه، لكن بعد ما يملكه بيرجع يخاف يفقده. ولما بيتجوز بيبقى عايز يمتلك وليفته ويسيطر عليها عشان ما تسيبوش، عشان ما يحسش بالضياح تاني. مساكين: مش عارفين إن الخوف من فقدان هو الضياح نفسه!

سألت باستيت نفسها إذا كانت تشعر بالضياح لأنها تاهت من أسرتها. لم تستطع حتى أن تفهم أن الضياح يأتي نتيجة فقدان بيت أو أسرة. ولكن كان بداخلها مفهوم أكبر للشئات لا تستطيع رصده بكلمات أو حكايات. كان قلبها مليئاً بالمشاعر تجاه هذا الموضوع، ولكن رأسها كان فارغاً من أي ذاكرة تمّت للموضوع بصلة. وبينما هي غارقة في أفكارها كان كشري يراقب ذبذبات جفونها وكأنها تستجدي ذاكرتها. في هذه اللحظة كان الصبي الذي يقود العربية يفتش في أحد أكياس الزبالة عن شيء يصلح للأكل. وفي النهاية وجد ثمرة موز قديمة اسودّ جلدها، فأزاح القشرة وقسم الثمرة إلى أربعة أرباع، أعطى أخاه الجالس بجواره ربعاً وأكل ربعاً والتفت للوراء وألقى الربعين الآخرين لكشري وباستيت. نظرت باستيت إلى قطعتي الموز ثم نظرت لكشري متسائلة، شمّت باستيت الفاكهة المتحللة ثم رفعت رأسها دون أن تأكل. امتنع كشري أيضاً عن تناول الموز رغم أنه بدأ يشعر بالجوع مرة أخرى.

- الولد اللي سايق عربية الزبالة باين عليه ما عندوش ورق؟ قالت باستيت وهي تشعر بالعرفان تجاهه، ولكنها تشعر بالألم لأنها لم تستطع أن تقبل هديته.

-
- بس قلبه كله كنوز. قال كشري.
- هو اسمه ايه؟
- سمعان.
- يعني ايه سمعان؟
- سمعان دا كان قديس بيقولوا إنه نقل جبل المقطم من جنب النيل من ألف سنة، ومن ساعتها وأطفال كتير من اللي بيتولدوا في الجبل بيسموهم سمعان.
- نقل الجبل ازاي؟ ونقله ليه؟
- لا.. دي حكاية طويلة.. لما تاكلي هاكيتها لك.

واصل سمعان المسير وأخوه سمير يجلس بجانبه يسامره.
- أنا تعبت يا سمعان. كل يوم زبالة طول النهار وبعدين أرجع
أنام وسط الزبالة في الحي، البنطلون بتاعي من الزبالة
والموبايل من الزبالة والأكل من الزبالة.
- معلش يا سمير كلها كام شهر وتخلص مدرستك الليلية وتدخل
الجامعة وتخلص من الهم دا. الرّك عليا أنا اللي هافضل
مدعوك في الحزن دا طول عمري.
- هو اشمعنا احنا يعني اللي محكوم علينا نشيل زبالتهم وننام
في حضنها كمان؟
- المسيحيين طول عمرهم هم اللي بيلموا الزبالة في مصر
عشان الزبالة نجاسة بالنسبة للمسلمين. وعشان احنا ساكنين في
الجبَل حكموا علينا ناخذ الزبالة معانا لفوق عشان الريحه ما
تزعجهمش، وعشان كمان مهنة الزبالين محتاجة خنازير تاكل
الزبالة، والخنازير حرام في الإسلام.
- أكلها بس هو اللي حرام، مش تربيتها. وبعدين هي فين
الخنازير دي؟ ما هم دبجوها لنا كلها قال ايه عشان أنفلونزا
الخنازير! بس الحقيقة عشان هم بيتربعوا من مجرد رؤية
الخنازير أو حتى سماع اسمها. من يومها وبواقي الأكل
مرططة في الحي والريحه بقت لا تطاق. ما عادش بيساعدنا
غير شوية الكلاب والقطة.
- المشكلة مش في مسلم ومسيحي يا سمير. يعني انت شايف
المسلمين مرتاحين قوي؟ ما هم ماليين العشوائيات حوالينا
وبيعافروا زينا عشان لقمة العيش.

- بس بذمتك مش حرام أنا وانت طول النهار بنلف على البيوت
نلم وساختها، وأمك واخواتك الصغيرين قاعدين مكفين ع
الزباله في المنطقه يفرزوا خرطوم قديم من وسط بامية معفنة
وقزازة بلاستيك من وسط مسامير وعلبة كشري من وسط
صلصة الكشري.

انتبه كشري قليلاً وظن أن سمير يخاطبه، ولكنه فهم أنه ليس
المعني بالكلام فواصل التأمل في عيني باستيت المتأففة من
رائحة الحي ولكنها منبهرة بأشياء لم ترها من قبل.

- بالذمة مش حرام البيت كله شغال زي العبيد، وفي النهاية ما
بيجيبش تمن الأكل والإيجار، وملوك الزباله يصدرّوا
البلاستيك للصين ويكسبوا ملايين؟ أكمل سمير.

- أهو ملوك الزباله دول مسيحيين زينا ومع ذلك ما بيرحموش!
- كله بينهش في لحم كله! بقت حاجة تقرف!

- لما الثورة قامت قلت خلاص الظلم راح ومسلم ومسيحي إيد
واحدة والأحوال هتتغير. بس لا مسلم ارتاح ولا مسيحي
ارتاح، والبلد ماشية في طريق مش باين له آخر. الناس عمالة
تكثر، والزباله عمالة تكثر، والجبل قرب يتخنق! قال سمعان.

- صدقتي مفيش حل يا اخويا!

- مفيش حل غير معجزة زي معجزة سمعان.

- صدقتي معجزة مش كفاية. يعني هي معجزة سمعان كانت
غيرت ايه؟ نقلت الجبل من اليمين للشمال شوية؟ طب وبعدين؟
دول بيقولوا حتى إن بعد نقل الجبل بكام سنة حصلت مجاعة
في مصر والبشر بعد ما خلصوا أكل الحمير والكلاب والقطط
بدأوا ياكلوا لحم بعضهم. إيه المعجزات اللي مالهاش لازمة

دي؟ ليه الجبل مثلاً ما يتكسّرش ويقع على روس اللي بيظلموا الخلق؟ أو ليه ما يلاقوش فيه منجم ذهب كبير وكل واحد ساكن فيه ياخذ ١٠ كيلو ذهب مثلاً عشان يخلص م الفقر والأمراض اللي الزبالة جلبتها علينا؟ إيه الفائدة إن الجبل يتنقل وبعدها يبقى مقلب زبالة أصلاً؟

- وتفتكر اللي معاهم الذهب مرتاحين يا سمير؟

- ما اعرفش! هات لي الذهب وانا أقول لك.

- ما تقولش كدا، انت نسيت إن المسيح قال طوبى للفقراء فإن لهم ملكوت السموات؟

- ما نسيتهش بس أنا تعبت من اللف زي الشحات ع البيوت، وقرفت إن خواتي وأمي بيفتشوا في وساحة البيوت وأسرارها على حاجة ليها قيمة بس مش ليهم هم. تخيل امبارح شفت أمك بتطلع ايه من كيس زبالة بتفرزه؟

- ايه؟

- كندوم.

ظهرت الصدمة على وجه سمعان ولم يجد ما يقوله.

- وكان مليون كمان. أنا استخبيت عشان أمك ما تشوفش اني شفتها في الموقف دا. لو كنت شفت النظرة اللي في عيون أمك وهي عمالة تقلب فيه عشان تكتشف هو ايه، والنظرة الثانية بعد ما فتحت العقدة بتاعته ولمست وشممت اللي جواه، كنت فهمت كلامي. كانت لايسة بيه بعد ما عرفت هو ايه كأنه دليل إدانتها على جريمة ارتكبتها. حاولت تدفنه في التراب بسرعة، وفي اللحظة دي راجل من رجالة جرجس قرب منها وحط جزمته فوق إيديها مكان ما ردمت البتاع. كان فاكرها لقت فلوس أو

فردة حلق وبتحاول تخبيها. ساعتها أمك اضطرت تشد أيدها من تحت الجزمة وتطلع الكندوم من التراب وتوريهوله. وقفت ورا الحيط أعض في أيديا وأنا حاسس بالعجز والذل. وامك فضلت تعبط وهي بتمسح أيديها في التراب. أنا كان عندي استعداد أبيع ملكوت السما عشان أنقذها وأنقذ نفسي من الموقف دا يا سمعان.

هز سمعان رأسه مستنكراً وقد عجزت الكلمات أن تخرج من فمه. رأى سمير دموع أخيه محصورة بين جفون عينيه فابتلع ريقه بصعوبة. مرت دقائق والأخوان يحاربان دموعهما في صمت، إلى أن أخرج سمير هاتفه المحمول وضغط على زر التشغيل. "ملعون أبوك يا فقر حاوجني للأندال.. ذليت عزيز النفس عشان عديم المال". نظر سمعان إلى سمير بابتسامة حنون بينما تخرج الأغنية من الموال الحزين إلى الإيقاع الراقص. "آه لو لعبت يا زهر واتبدلت الاحوال.. وركبت أول موجة في سكة الأموال". بدأ سمعان في هز كتفيه على أنغام الأغنية فشاركه سمير الرقص.

أصوات عديدة كانت تتنافس في الحي أثناء دخول العربية. ارتطام عظام بعظام، وحديد بحديد، وزجاج بزجاج، كلبان ينبحان، ومنتشار يدوي يقطع خشباً. فقط إيقاع خطوات الحمارين المسرعين لدخول الحي وحد كل هذه الأصوات في سيمفونية كاملة.

قفز كشري وباستيت من العربية بعد أن وقفت أمام بيت من الطوب الأحمر وبدأ سمير وسمعان في إنزال أكياس القمامة

ووضعها تحت البلكون الصغير. أكياس زبالة عملاقة في كل مكان. أمام البيوت وخلفها، في البلكونات وفوق الأسطح. كان النهار يوشك على نهايته بينما خليط من الروائح يستقبل كشري وباستيت: رائحة طعام عفن وخضراوات متحللة، وريش محروق، وعقد فُلّ أخرجته طفل من كيس قمامة يفرزه وذهب به إلى أمه ليسألها فوق أي كومة يضعه. ابتسمت الأم ووضعت عقد الفل حول عنق ابنها وقالت: "دا ليك يا حبيبي. المسيح بعتهولك". مشى كشري وباستيت بين الشوارع التي ترتمي على جانبيها أكياس الزبالة في كل مكان، بجوارها أكوام كبيرة من الزجاجات البلاستيكية وأكوام أخرى من الورق وأخرى من خردة الحديد. وقفا يراقبان رجلاً حائراً أمام كومة هائلة من عظام الحيوانات وقد سدت الطريق لباب منزله.

- لو دا هو حجم اللي البشر بيخلفوه كزبالة، أومال يبقى هم بياكلوا قد ايه؟ سألت باستيت.

ولكن طريق الصعود كان لا يزال طويلاً للوصول إلى الحي الراقي بالجبل حيث كارفور، فأجل كشري الحديث عن أكل البشر للذهاب من أجل إحضار طعام لباستيت.

وقف أشرف ورشا ونورا أمام محل الجزارة المغلق وقد ملأت وجوههم الحيرة والقلق. راحوا يتجولون في الأزقة الخالية من البشر وصوت أذان المغرب يدوي في مساجد المنطقة. وقف أشرف أمام بيت قديم تأكل دهانه الأزرق وتنهت تنهيدة طويلة.

- مش وقته يا أشرف.. أرجوك. لازم ندور على القطة قبل الدنيا ما تضلم. قالت رشا وقد تسلل خليط من الحيرة والغيرة إليها.

وقفت نورا تبكي أمام نفس البيت ولامست بابه الخشبي العتيق وراحت نظراتها تتوه في تفاصيله وخدوشه.

كان أشرف عاجزاً أمام بكاء نورا وتعنيف رشا. لم يكن يملك سوى مواصلة البحث معهما في أزقة خالية من البشر. ثم توجه معهما نحو شارع بورسعيد للبحث عند موائد الرحمن. كانت أعداد كبيرة من القطط تلثف حول الموائد وتشارك الصائمين إفطارهم، ولكن لم تكن باستيت بينهم.

- إحنا لازم نروح قسم الشرطة نعمل محضر يا أشرف. قالت رشا وهي تتأفف من الشوارع المتسخة ونظرات بعض المارة لثوبها القصير.

- قسم الشرطة؟ معقول؟

- مش معقول ليه يا بابا؟ هو لو بني آدم ضاع مش بيروحوا يبلغوا عنه؟ هي القطة أقل من بني آدم؟

- لا يا حبيبتى طبعاً مش أقل. بس ما اعتقدش القانون يجبر الشرطة تدور ع القطط. بس ع العموم خلىنا نحاول.

توجه الجميع لقسم الشرطة حيث انتهى معاون القسم من تناول الإفطار وكان يشاهد الفواير مع بعض الجنود.

- أيوه يا أستاذ.

- حضرتك أنا جاي أعمل محضر.

- محضر إيه؟

- أأأأأ... مفقودات.

- إيه اللي ضاع من حضرتك؟ اتفضل اقعد. اتفضلي يا مدام.
اتفضلي يا أنسة.

- قطة.

- قطة؟!!

- آه القطة بتاعت بنتي نورا ضاعت عند شارع بيرم التونسي.
- طيب حضرتك عايزني أعمل ايه؟ آخذ قوة ونروح ندور
عليها؟

- إيه المانع حضرتك؟

- يا أستاذ انت مش عايش في البلد دي ولّا ايه؟ انت عارف أنا
عندي كام بلاغ خطف أطفال وكبار؟ عارف كام واحد بيخرج
من بيتهم وما بيرجعش؟ وعايزني أسيب كل دول وأروح أدور
لك على قطة؟

- فاهم والله يا افندم. بس القطة دي زي واحدة من العيلة،
وروح البنت فيها. وهي برضه كائن الرسول عليه الصلاة
والسلام وصانا بيه، وقال: دخلت امرأة النار في قطة حبستها،
فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض.
- عليه الصلاة والسلام.

رأى ضابط الشرطة الدموع تنساب من عيني نورا، فنادى أمين
الشرطة من الغرفة المجاورة: تعال يا أيمن اعمل محضر
للأستاذ.

توجه الجميع للغرفة المجاورة وايتسمت رشا حين تعرف أمين
الشرطة عليها وأتتى على مسلسلها الجديد.

- ما مواصفات الشيء المفقود؟

- قطة بيضا، أجاب أشرف.

-
- القيمة؟
- لأ.. قيمة ايه؟
- اشتريتها بكام يعني؟
- ب.... ب ٤٥٠ جنيه. بس هي قيمتها مش في سعرها.. دي....
- ضاعت من حضرتك فين والساعة كام؟
- في شارع السلخانة، ناصية بيرم التونسي عند محل صبحي
الجزار، حوالي الساعة ٣ العصر.
- عارف حضرتك إنه لازم يمر ٢٤ ساعة عشان نعتبرها
مفقودة؟
- هاعرف منين بس؟
- هو دا القانون في التعامل مع اختفاء البشر. فيه حد بيبقى
مكسل يرجع البيت أو قرفان من مراته، أو سهران في مكان
والوقت سرقه، أو واحدة جوزها ضاربها وهربت، فبييجوا
أهاليهم يعملوا محاضر وبعدين يروحوا البيت يلاقوهم رجعوا.
- حضرتك القطة نطت من العربية وتاهت في مصر القديمة.
أكد مش هتاخذ تاكسي وترجع بيه التجمع الخامس، وأكد مش
مكسلة ولا بتتدل عشان تعرف معزتها عندنا.
- هل لديك أقوال أخرى؟
- لا.. شكرًا.
- خلاص سيب عنوانك ورقم تليفونك واحنا لو حد بلغ انه لقي
قطة هنبلغك.
- يعني مش هتدوروا عليها؟ سألت نورا.

جاء صوت من الحجرة المجاورة: جهز قوة يا سعيد، فيه سطو
مسلح في شارع يوسف السباعي. منهم لله ماش هامدانين حتى
في رمضان!

كان مشهدُ الأرفف المرتبة والإحساس بلسعة الهواء البارد في كارفور أولَ شيءٍ مألوفٍ مرَّ على باستيت منذ بداية النهار. أخذتها أصوات زقزقة عجلات عربات المشتريات بالبلاط إلى عالمها القديم المعهود والمحدود. نفس الوجوه تقريبًا، نفس أنواع الأحذية والعمود، نفس الزجاجات المتراسة كأنها في طابور عسكري، ونفس اللحوم المقطعة والمغلقة بعناية. نفس طنين ماكينات الكاشير ونفس خروشة دخول البضائع في أكياس بلاستيكية. أما بالنسبة لكشري فلم يكن كارفور سوى حي قمامة مرتب وبلا روائح كريهة. كان حي قمامة على بعد ميلين من حي الزرايب، حيث سيعيد الفرّازون ترتيب الأشياء كما كانت في المتجر مرة أخرى، وعلى بعد ساعتين من يد المستهلك الذي سيلوث الجبل ولكنه لن يشم رائحة العفن التي تفوح منه.

وقفت باستيت أمام رف الألبان تتأمل صورة البقرة الضاحكة على علب الحليب. تذكرت ما حكاه كشري عما يفعله البشر بالبقرة في السلخانة، وكانت تتعجب لماذا يظن البشر أن البقرة التي يحبونها ثم يذبحونها ويأكلونها قد تكون سعيدة بذلك. تخيلت لو أن القطط صارت أكبر حجمًا وقوة وكانت على نفس القدر من وعي البشر بفكرة الامتلاك وعلى نفس قدرتهم في التحايل والتدبير، واستطاعوا أن يطلبوا نساء البشر ويضعوا حليبهن في علب، واستطاعوا أن يذبحوا رجالهم ويقطعوهم ويغلفوا لحومهم، ثم بعد ذلك وضعوا صورة امرأة تبتسم على علبه الحليب وصورة رجل سعيد على اللحوم المغلفة، ثم فتحوا

متجرًا لتشتري القوط هذه البضائع بورق. كيف سيكون شعور
البشر حينها إذا دخلوا إلى هذا المكان؟ كيف سيكون حكمهم
على القوط التي جلبت والقوط التي ذبحت والقوط التي باعت
والقوط التي اشترت؟

وقفا أمام رف كامل مليء بمعلبات مرسوم عليها قوط ذات
عيون متحفزة. قفز كشري عدة قفزات وحاول أن يطيح بمخلبه
ببعض العلب. بعد محاولات عديدة نجح في الإطاحة بواحدة،
وراح يدحرجها أمامه وخرج من السوبرماركت تتبعه باستيت
بسرعة. جلسا خارج المتجر وهما ينظران للعبة في حيرة،
حيث بقيت مشكلة أخرى: من سيفتح لهما اللعبة؟

- الإنسان فإكر نفسه أذكى المخلوقات، لكن سبب تفوقه الحقيقي
هو إن مفاصل إيدته تسمح له بفتح العلب المقفولة. لو كان عندنا
نفس المفاصل ما كناش احتجنا البشر في أي شيء. قالت
باستيت وهي تتشعر بقلة الحيلة.

- بس احنا ممكن نخلي البشر يعملوا اللي احنا عايزينه. قال
كشري.

- إزاي؟

- البني آدمين دايمًا مفكرين إنهم بيعملوا كل شيء باختيارهم،
بس في الحقيقة معظم اختياراتهم بتقع تحت تأثير حد ثاني
وظروف ثانية من غير هم ما يحسوا. وأكثر حد بيسخر إرادة
البشر لإرادته هم القوط.
- أنا مش فاهمة حاجة.

- من كام ألف سنة كانت القطط عايشة في الصحراء بين مصر وليبيا. القطط حبت تسافر وتشوف الدنيا، وصلت للساحل، بس ما لاقيتش وسيلة تسافر بيها. فيه قطة ذكية رمت حطة خشبة في البحر، الناس شافوها وهي بتطفو فوق سطح المية وجاتلهم فكرة صناعة السفن، فسافرنا معاهم وانتشرنا في كل الدنيا. معظم الفلاسفة والكتاب كان عندهم قطط بتوحي لهم بأفكار، موسيقيين ورسامين كثير كانوا بيعزفوا ويرسموا اللي قططهم عايزين يسمعه أو يشوفوه. حتى لينين لما قاد الثورة البلشيفية كان بايحاء من قطته اللي ما كانتش بتفارقه. وميدان التحرير وقت الثورة في مصر كان مليون قطط.

- طيب لو الموضوع كذا خلي الوحي يشتغل وافتح لنا اللعبة يا كشري!

- طيب اختاري مين من اللي خارجين من السوبرماركت يفتح لك اللعبة، مع إني ما باحبش أطلب حاجة من البشر. أشارت باستنيت إلى فتاة في عمر المراهقة فتوجه إليها كشري وحك فروته برجليها ففهمت واصطحبته للعبة وفتحتها بينما أمها تهز رأسها وتضحك. كان كشري سعيدًا بالعبة المفتوحة كأنه وجد كنزًا وقال لباستنيت: بالهنا والشفا، ولكنها أصرت أن يتذوق هو طعامها المفضل أولاً.. فأكل وباستنيت تنتظر رأيه بترقب، فقال: بصراحة مالوش طعم، ولكنه واصل الأكل.. ابتسمت باستنيت وجلست تأكل وجسدها ملاصق لجسده.

جلست رشا تشاهد نفسها في التليفزيون بينما نورا تفتح علبة أكل قطط وتضع وعاء ماء صغير في الركن المخصص

لباستيت. كانت تعلم أن باستيت لن تأكل ولن تشرب، ولكنها كانت تحتاج هذا الطقس، كي تخفف عن نفسها آلام غيابها. كانت تحاول أن تطرد الفكرة الخبيثة من رأسها أنها ستخذ إلى فراشها بعد قليل دون أن تعرف أين تنام قطتها. دخلت نورا غرفة المكتب حيث يدخل أشرف سيجارة ويحلق في سقف الحجرة.

- هنروح ندور على باستيت تاني امتي يا بابا؟
- بكرة يا حبييتي.
- لا يا أشرف، صاحت رشا من الغرفة الأخرى.
- مش هاسيبك تاخذ بنتي للمنطقة دي تاني، كفاية اللي حصل.
- خلاص يا رشا هاروح انا أدور عليها لوحدي. قال أشرف وهو يحاول أن يكتم الضجر المفضوح على وجهه.
- كفاية تحط صورها ع المحلات اللي في الحارة وخلاص، وادي كل صاحب محل خمسين جنيه وقول لهم يتصلوا بيك لو شافوها، إحنا مش فاضيين كل يوم والتاني نفوت ع السلخانة.
همس أشرف لنورا: هنروح أنا وانتِ بكره ندور عليها. بس ما تقوليش لاماما! ابتسمت نورا ابتسامة مقتضبة وخرجت من الغرفة.

جلس كشري وباستيت داخل قارب أزرق صغير بهت لونه من فرط القدم فوق هضبة المقطم، وراحا ينظران للقاهرة من جميع الجهات. الشمس تغرب خلف الأهرامات على يسارهما والقاهرة القديمة توقد أول شموع مآذنها وكنائسها أمامهما.

- المصريين بيقولوا إن القاهرة بالليل أجمل منها بالنهار، وبيقولوا انها من فوق أجمل منها من تحت. بيقولوا كدا عشان ما بيبصوش كويس وما بيشوفوش التفاصيل اللي تحت. المصريين اتغيروا، زمان كانوا بيحسوا بالجمال في كل شيء حتى في الموت، وكانوا بيخلقوا الجمال في كل شيء حتى في المقابر. نسيوا روحهم عشان كدا بطلوا يحسوا بأرواح الأشياء. لو رجعوا يشوفوا مصر بعيون القطط هيرجعوا يحبوها. قال كشري وهو يلقي بنظرات بانورامية على المدينة.
- هو فين البحر؟ سألت باستيت.

- البحر بعيد عن هنا كثير. شايفة النيل اللي هناك دا؟ بيفضل ماشي على طول لحد ما يوصل للبحر. أشار كشري إلى الشريان الذي يصب الحياة في القاهرة من ناحية وتصب القاهرة فيه همومها من الناحية الأخرى.

- طيب لما هو البحر بعيد والنيل بعيد، المركب اللي احنا قاعدين فيها دي بتعمل ايه فوق الجبل؟

- المركب دي قديمة جدًّا، وحكايتها أقدم منها. أهل الجبل بيعتقدوا ان مركب نوح رسيت على المقطم بعد الطوفان، ومن هنا بدأت الحياة من جديد. والناس بتصدق الحكاية دي عشان كل ما يحفروا في الجبل يلاقوا صدقات بحرية. زمان أوي كان الناس هنا بتعتقد إن الطوفان هيرجع تاني قريب وهيغطي

الجبل، فكان كل بيت يبني مركب صغيرة عشان يكونوا جاهزين للطوفان. بس الموضوع دا اتنسى عشان الناس كل يوم عايشين في طوفان فعلاً، كل شمس بتطلع عليهم بتغرّقهم في هموم وفكر. بيفكروا ياكلوا ايه ويجيبوا تمن الأكل منين ويعالجوا نفسهم من الأمراض منين. بس فيه قصة تانية ليها علاقة بقصة نقل الجبل اللي ما كملتها الكيش. بيقولوا إن النيل كان بيوصل لحافة الجبل من ألف سنة، ولحد الوقت دا أهل الجبل كانوا بينزلوا النيل بالمراكب عشان يعدوا الضفة التانية. بس بعد القديس سمعان ما نقل الجبل، انفصل الجبل عن النيل.

- إيه حكاية نقل الجبل دي؟

- بيقولوا كان فيه حاكم غريب جا عشان يحكم مصر. كان جاي من الغرب. القاهرة القديمة ساعتها كانت متقسمة خمس مدن: منف اللي بناها المصريين القدماء وكانوا بيعبدوا فيها باستيت، أشار بإصبعه باتجاه المنطقة المحيطة بالأهرامات. بابلون اللي بناها الرومان والنهارده عايش فيها المسيحيين، أشار بيده إلى حي قديم لا يبعد كثيرًا عن النيل. والفسطاط اللي بناها واحد جا من ورا البحر الأحمر اسمه عمرو، وأشار إلى حي يجاور حي المسيحيين. ومدينة العسكر اللي قدامنا دي هي المدينة اللي قابلتك فيها وبناها واحد جاي من العراق، ودي أكثر منطقة فيها ققط في العالم كله، وبعدين مدينة القطائع بناها واحد برضه من العراق ورا مدينة العسكر، وبعدين القاهرة اللي بناها الحاكم الجديد اللي جا مصر من ألف سنة من المغرب، واللي الجبل انتقل في عهده.

- هو ليه مش المصريين هم اللي بنوا كل المدن دي؟ الحكام الأجانب دول هم اللي كانوا بينبوا البيوت ويرصفوا الطرق بنفسهم؟

- لا طبعًا.. شعب مصر هو اللي كان بييني كل حاجة ويموت تحت الحجارة، بس بأوامر الحكام. بس جرت العادة إن المصريين يطلقوا اسم الحاكم اللي أمر ببناء المكان عليه، عندك مثلاً بيقولوا هرم خوفو رغم إن خوفو ما شالش فيه حجر. والجبل انتقل ازاي؟

- دا كان من ألف سنة. الحاكم اللي جا من الغرب كان اسمه المعز لدين الله، وكان بيحب النقاش والجدل. كان بيحب زعيم اليهود وزعيم المسيحيين وزعيم المسلمين ويخلوهم يتجادلوا مع بعض ويشوف مين يكسب.

- يعني إيه يهود ومسيحيين ومسلمين؟

- انتِ باين عليكِ مش عايزاني أخلص لك الحكاية. دول ثلاث ديانات يا ستي. نفس الشيء تقريبًا. المصريين القدماء كانوا بيعبدوا القطط والشمس والنيل وإله اسمه آمون وإلهة اسمها إيزيس، وبعدين جا إخناتون وقال الشمس بس هي الإله، وبعدين جم اليهود اللي كانوا عايشين في مصر وأخدوا فكرة التوحيد من إخناتون، وقالوا فيه إله واحد اسمه يهوه قاعد في السماء، جم المسيحيين وعبدوا نفس الإله بس سموه الرب وقالوا إنه نزل للأرض ومات من أجل البشر ع الصليب، وبعدين جم المسلمين عبدوا نفس الإله وسموه الله وقالوا إنه ما اتصلش.

- آه كنت باسمع كلمة الله دي كتير ورشا زعلانة من الخدّامة. كانت دايماً بتقول لها "الله يخرب بيتك". بس المهم كانوا بيتجادلوا ليه ما دام بيعبدوا نفس الإله؟

- مش عارف يا باستيت. البشر بيموتوا في الجدل، رغم إنهم عارفين ان محدش هيغير رأيه ولا رأي الثاني في آخر النقاش. بس هم بيحبوا يثبتوا ذاتهم في الاختلاف. النبي آدمين عندهم "أنا" كبيرة شوية وما بيحبوش حد يعارضهم، يعني ذواتهم متضخمة ومحتاجة تتنفخ كل يوم عشان ما تترهلش. بيحبوا المديح ويحبوا يسمعو كلمة شكرًا عشان معندهمش ثقة في نفسهم وبيحسوا بعدم الأمان لما حد يخالفهم الرأي. عشان كذا كل واحد له رأي بيتعصّب له، يفضل يجادل ويقول إنه هو بس اللي عنده الحق، زي القطط اللي شفناهم بيتخانقوا في الحارة، رغم إن محدش منهم بيهدد وجود الثاني. والبشر مش بس بيتخانقوا عشان أكل أو مرقد، لأ، دول كمان بيتخانقوا عشان فكرة أو دين أو حتى عشان فرّق بتلعب كورة في بلاد ثانية عمرهم ما راحوها. تخيلي!

- طيب الجبل انتقل ازاي؟

- الحاكم الجديد سأل زعيم المسيحيين "انتم مكتوب في كتابكم إن المؤمن الحقيقي ممكن يحرك الجبل من مكانه بإيمانه. لو عايز تثبت إن كتابك هو الكتاب الحق قوم حرّك جبل المقطم من مكانه. ولو ما حركتوش يبقى هاهدم كنايسكم وأطرلكم من مصر". زعيم المسيحيين اتورط وما بقاش عارف يعمل ايه. راح الكنيسة اللي في بابلون وجمع المسيحيين. المسيحيين فضلوا يصلوا ٣ أيام و ٣ ليالي ويدعوا إلههم إنه يخرجهم من

الورطة دي. وبيقولوا إن العدرا مريم، اللي هي تبقى أم يسوع اللي أسس المسيحية، ظهرت للمصلين في الكنيسة وقالت إن واحد من الشعب هو اللي يحرك الجبل واسمه سمعان الخراز. سمعان دا كان راجل إسكافي بيصلح الجزم القديمة، وكان بعين واحدة.

- يعني اتخلق بعين واحدة؟

- لأ.. كان عنده عينين بس هو خزق واحدة منهم.

- فيه حد يعمل كدا؟

- آه هو كان بيصلح حذاء واحدة ست جميلة وبعدين الهوا طير اللبس اللي كانت لبسها فالراجل الإسكافي بص على جسمها العريان وجسمها عجبه، قام مسك الإبرة اللي في إيده وضربها في عينه.

- ليه الجنون دا؟

- عشان في كتابه المقدس مكتوب "إذا عصتك عينك فاقلعها".

- طيب ازاي؟ مش الإله بيحب اللي بيعبدوه عشان هو وهم روح واحدة؟ وانت بتقول إنه نزل للأرض ومات من أجل البشر؟ طيب مش اللي بيحب حد مستحيل يأديه؟ ليه يقول له يقلع عينه؟ دا لو كل مؤمن عمل كدا البلد كلها هتبقى عامية!

- الراجل هو اللي فسر النص حرفياً. دي ظاهرة موجودة في كل الديانات. ناس بتخزق عينيها، وناس بتصلب نفسها، وناس تقتل ناس عشان بيئتموا لدين تاني، وناس بتقتل ناس عشان عاشروا بعض وشموا بعض.

- وهو دا اللي العدرا اختارته عشان يحرك الجبل؟

- آه عشان هو الوحيد اللي طبق النص بالحرف مع نفسه، وكدا هو الوحيد اللي كان ممكن يطبقه ع الجبل حرفياً.

- وبعدين إيه اللي حصل؟

- سمعان قاد المسيحيين من بابليون للمقطم عند الفجر ووصل الجبل قبل شروق الشمس. الملك ووزراؤه كانوا واقفين منتظرين. سمعان صرخ وقال "كيريا ليسون" وكل المسيحيين اللي معاه رددوا نفس الكلمة لحد الجبل ما طلع لفوق وكل الناس شافت الشمس وهي بتشرق من تحته، وبعدين الجبل اتقل من جنب النيل وبعّد عنه مسافة ألف متر.

- يعني إيه كيريا ليسون؟

- يعني يا رب ارحم!

- وتفنكر دا حصل بجد؟

- في مكان زي دا وأوضاع زي دي الناس محتاجة يا إما معجزة حقيقية أو حكاية معجزة تديهم أمل. ما دام البشر مصدقين إنها حصلت يبقى خلاص. مش مهم المعجزة نفسها، المهم مين مؤمن بيها، لأن الإيمان هو المعجزة الحقيقية.

- أكيد سمعان بقى زعيم المسيحيين بعد الواقعة دي. قالت باستنيت.

- لا أبداً. دا بمجرد الجبل ما اتحرك ببيصوا حوالِيهم ما لاقوهوش. اختفي في الجبل وما رجعت تاني كان حاسس إنه اتوجد في الحياة بس عشان ينقل الجبل، وإنه مجرد أداة ولا فضل له فيما فعل، وما كانش عايز حد يشكره على شيء ما عملوش. بس مع ذلك نحوله دير باسمه بعد ألف سنة في الجبل

وسموه قديس. دير كبير جداً هو اللي تحتنا ده، القاهرة قدامه
وحي الزبالين وراه.

ظلت باستيت تفكر في كلمة "إيمان". هل نولد بلا إيمان
ونتعلمه حين نرى المعجزات أو حين نسمع الحكايات عن
معجزات لم تحدث؟ أم أن الإيمان يولد معنا ونقابله في كل
شيء؟ تذكّرت بيتها و ركنها المريح حيث وضعت لها نورا
وسادة بجانب النافذة كي تراقب أسراب الطيور تدور وتدور
بدون كلل وترسم أشكالاً تجعل عيني باستيت تتسع ثم تتلاشى
في ثوان لتعود لحريتها المنفصلة عن الشكل والمعنى. حريتها
الوفية للتخليق وحده. تذكّرت يدي نورا وهي تداعب رأسها أو
تمشط فروتها بحنان. سألت باستيت نفسها: "هل أحن إلى بيتي؟
أم أحن إلى نورا؟ لماذا قفزت من السيارة دون أن أفكر ولو
للحظة واحدة؟ لمن كنت أحن إذاً حين تركت حضن نورا و
قفزت؟ بم كنت أو من؟ عمّ جئت أبحث؟ هل كنت أبحث عن
معجزة أم كنت ألبى نداءً؟ نداء من؟ ربما تكون الأشياء التي
نحب هي نداءاتنا. وهي نداءاتنا لأننا نسمعها دون سوانا ونتبعها
ونتركها تقودنا إلى قلوبنا. نحن لا نختار الأشياء التي نحب
ونجد أنفسنا مشدودين إليها، ولكنها تشدنا إلى أعماقنا لا إلى
خارجنا. هل النداءات هي إيماننا؟

تزامت الأسئلة والأفكار في رأس باستيت فأغمضت عينيها
لثوان قليلة حملتها إلى عوالم أخرى وروائح غريبة. بدأت
تشعر بثقل قلبها ولكنها في تلك اللحظة شعرت برأس كشري

يلامس رأسها. ففتحت عينيها وهدقت في عينيها الهادئتين
وزفرت زفرة طويلة.

وقفت نورا خلف باستيت التي كانت غارقة في مراقبة العالم
خارج النافذة وسألته: "انتِ كنتِ فين يا باستيت. ورجعتِ
امتى؟ أنا كنتِ قلقانة عليكِ قوي"، استدارت باستيت ونظرت
نظرة حنوناً لنورا ثم أغضت عينيها وفتحتهما مرة أخرى دون
أن تقول شيئاً.

- أكلتِ يا حبيتي؟ انتِ أكيد جعانة عشان ما أكلتيش طول اليوم.
واصلت باستيت نظرتها الحنون لنورا دون أن ترد. "أنا
اشتريت لكِ الأكل اللي بتحبيه". أغلقت باستيت عينيها ببطء
وفتحتهما مرة أخرى وحرّكت أذنيها قليلاً. "طيب يا حبيتي أنا
هاروح أجهز لكِ الأكل". وبينما تهّم نورا بمغادرة الغرفة
سمعت باستيت تقول لها: "انتِ ممكن تاخدي الكنز بتاعي".
التفتت نورا مندهشة وقالت: "باستيت.. انتِ بتعرفي تتكلمي؟
انتِ قلتِ حاجة دالوقتي؟" سكتت باستيت قليلاً ثم قالت "تحت
المخدة".

استيقظت نورا من النوم بابتسامة كبيرة على شفاهها ودموع
كثيرة في جفونها. تذكرت كيف أن باستيت كانت تجلس عند
طرف بطانيته ليلة أمس لأول مرة في حياتها وكانت تطيل
النظر لنورا وكأنها تريد أن تخبرها بشيء ثم سقطت في نوم
عميق. وضعت نورا يدها على نفس البقعة التي كانت تنام
عليها باستيت فشعرت بحرارة جسدها فوقها. تذكرت الحلم
فالتفتت إلى المخدة وقد ازدادت ضربات قلبها. هل من المعقول

أن باستيت تركت لها شيئاً تحت الوسادة بالفعل؟ فجأة شعرت بالخوف من هذا الشيء، وكانت تشعر بنفس القدر من الخوف ألا يكون هناك شيء. وبعد دقائق من الحيرة أزاحت المخدة فوجدت تحتها الطائر البلاستيكي الأزرق الذي كانت باستيت تلعب به بالساعات وكأنه كائن حي. لم يكن أحد في المنزل يتذكر أنه اشترى لباستيت مثل هذه اللعبة. لم يكن أحد يعرف من أين جاءت به. حملت نورا الطائر الأزرق وضمته إلى صدرها ثم خرجت به نحو غرفة الضيوف ووضعت على نفس الوسادة التي كانت باستيت تجلس عليها بجوار النافذة.

جالت عيون باستيت بين كل أحياء القاهرة وحالة من الشرود لا تزال تسيطر عليها:

- مفيش ولا بيت من البيوت دي يشبه بيتي.
- يمكن كلها بيوتك وانتِ مش واخدة بالك. أنا ماليش بيت، ودا في حد ذاته شيء كويس، لأن مفيش أجمل من الحرية، بس أنا مش حاسس إنني مشرد، بالعكس، الدنيا كلها بيتي، وأنا ممكن أستمتع بالبيوت والأشياء أكثر من أصحابها، لأنني ما باخافش أفقدها ولأنني باشوف فيها الجمال وباودعه، ولو رجعت لها تاني باستمتع بجمالها وباودعها تاني.

- أكون وحشة لو قلت إنني مش مشتاقة لبيتي؟

- انتِ مش حقيقي وحشة لو قلت أي حاجة!

- تعرف يا كشري، أنا كنت باحب الشبابيك في البيت أوي. كان العالم بيوصلني عن طريق الشبابيك دول. أنا فاكرة كل شباك والمنظر اللي وراه وكأنه رسمة، وإذا اتغيرت أي حاجة برّه

الشباك كنت بالاحظها فوراً. لو وقع غصن من شجرة، أو زاد دور في أي عمارة، لو الناس الي قصادنا غيروا ستاير البلكونة كنت بالاحظ.

- ما كنتيش يتملي؟

- ما كنتش بامل، بس كنت أحياناً أغير المكان واروح الناحية الغربية من البيت. الشباك اللي هناك كان بيطل على طريق وعربيات وحركة. الجانب دا ماكنش لوحة بالنسبة لي وإنما كوبري. كان الشباك دا بيقول إن فيه حياة في الخارج وفيه تنقل من أماكن مش شايفها لأماكن تانية مش شايفها برضو. كنت باراقب ألوان العربيات والناس اللي فيها لساعات. كنت أعرف إنهم جايبين من مكان وإنهم رايحين لمكان تاني، والمعرفة دي في حد ذاتها خلّنتي أفف هناك كثير وارسم عوالم كثير في خيالي وأحلم كثير.

- ازاي بتقولي إنك مش مشتاقة لبيتك وانتِ فاكراه بالشكل الدقيق دا؟

- فيه مساجين كثير بيحفظوا كل تفاصيل سجنهم صمّ. بيحفظوا ملامحه في دماغهم ويحفظوا شعور المسجون في قلوبهم، وعشان كدا بيقوا مليونين بسجونهم وبيأخذوها معاهم لأي مكان حتى للسما.

- انا اتخلقت عشان أكون حر. ما اقدرش استحمل الحياة اللي بتوصفيها دي يا باستيت.

- يمكن عشان كدا استحملتها أنا.

زفر كشري زفرة قوية حين سمع آخر جملة قالتها باستيت وتاهت عيناه بين أحياء القاهرة والسماء وعيني باستيت التي

كانت حائرة وهي تتساءل من أين جاءت هذه الجملة الأخيرة
بالتحديد. من قالها على لسانها؟ وما هي دلالتها؟

كلما أطالت باستيت النظر للقاهرة من أعلي، ملأتها الرغبة في أن تجوب شوارعها شارعاً شارعاً. كانت تشعر أن كل بيت من بيوتها يرسل إليها رسالة ما. حتى الجبل الذي كانت تقف فوقه كان يعرفها وتعرفه.

- إيه أكثر أماكن بتحبها في القاهرة؟ سألت باستيت وهي تنظر باندهاش لأنوار المدينة التي تضاعفت مع حلول الظلام.
- باحب سوق خان الخليلي، ريحة البخور اللي فيه بتأخذك لنديا تانية. وباحب كمان فسقية جامع الحاكم، الميه بتاعتها طعمها غير كل ميه في القاهرة.
- وبتحب ايه كمان؟

- باحب النيل عشان بشوف وشي في مرايته. وباحب بيت سلوى اللي على النيل.
- ايه بيت سلوى دا؟

- سلوى كانت بتحب القبط جداً. وكانت عاملة بيتها ملجأ للقبط المتشردة، كانت بتسكنهم عندها وكانت بتأكلهم وتعالجهم وتلعب معاهم كأنهم ولادها. وفي يوم حصلت حريقة في شقتها وكانت هي وصاحبيتها قاعدين في البلكونة، النار زادت والدخان ملا المكان. سلوى وصاحبيتها هربوا من الشقة عن طريق البلكونة، بس سلوى خافت على القبط ورجعت عشان تنقذهم، رغم إن الجميع حذروها. كانت بتدخل وسط النار وترجع بمجموعة قبط وبعدين ترجع تاني وتنقذ مجموعة جديدة، وقدرت تنقذ عشرين قطة، بس كان لسه عشرين جوه، دخلت آخر مرة وما خرجتش تاني. ماتت مخنوقة من الدخان جنب باقي القبط اللي ما قدرتش تنقذهم.

- يااااه لسه فيه بشر من النوع دا؟

- طبعاً فيه كتير.

- يا ترى القبط اللي عاشوا راحوا فين؟ ويا ترى بيفتكروا

سلوى وقدروا يفهموا هي عملت معاها ايه؟

- هي ريحتهم من معاناة التشرد وهم أدوا لحياتها ولموتها

معنى. أكيد هي وهم حاسين بالامتنان تجاه بعضهم وتجاه

الحياة. وأكيد سلوى هترجع وتتقابل مع القبط اللي ماتوا

والقبط اللي هي أنفذتهم تاني، وأكيد المرة دي هيدوها حب

أكثر!

- طيب تفكر سلوى والقبط اللي ماتت دالوقتي موجودين مع

بعض؟

- أكيد.

- في أي مكان؟

أشار كشري بمخبله للسماء وقال: في أماكن كتيرة.. في النجم

دا. ثم أشار إلى الحي المظلم أسفل الجبل وقال: وفي المقابر

دي، وفي الشوارع.

ظل كلاهما يقلب النظر بين السماء والمقابر وعيني باستتيت

مكتظة بمئات الأسئلة حول الحياة والموت. مرّت ساعة وهما لا

يقولان شيئاً ولا يفعلان شيئاً سوى النظر إلى القاهرة والسماء

والمقابر، ثم إلى بعضهما بعضاً.

- كشري، إحنا حننام فين النهارده؟
- أنا ما باحبش أنام في الخلا، وإلا كنت نمت معاك في القارب
دا. عادةً بانام يا إما في بيت صلاح صاحب محل الكشري، أو
في سينما الشرق في ميدان السيدة زينب. يونس الحارس بتاع
السينما بيحب القطط وبيسييني أدخل اتفرج على الأفلام القديمة
وبعدين انام في صالة العرض بعد البني آدمين ما يروحوا.

- يعني إيه سينما؟

- مش أصحاب البيت اللي انت عايشة فيه عندهم صندوق
وكانوا بيتفرجوا فيه على صور متحركة؟

- آه.. نورا كانت بتقعد تتفرج فيه على قطة بتجري ورا فار
وتضربه وبعدين الفار يرجع يشدها من ديلها وكانت نورا
بتضحك، وأنا ماكنتش فاهمة بتضحك على إيه.

- أهو يا ستي السينما زي الصندوق دا بالظبط بس أكبر بكثير.
إيه رأيك نروح ننام هناك الليلة؟

- طيب.

نزل كشري وباستيت من الهضبة ومشوا خلال المقابر
لاختصار الطريق. كان السكون يخيم على المكان، لا قطط ولا
بشر. تتأقلت خطوات كشري وراح يطوف حول بعض القبور.
سألته إذا كان يعرف سكان القبور التي طاف حولها. قال لها إنه
يعرف كل القبور وسكانها بلا استثناء. سألته لماذا طاف حول
هذه القبور بالذات دون غيرها. قال إن بينه وبين سكانها رابطاً
لا يستطيع الكلام أن يصفه، وقال إنه لا يتذكر مواقف معينة
دارت بينه وبينهم، لكنه يشعر أنه يعرفهم جيداً.

-
- طيب هو كل اللي بيموتوا بيروحوا النجم اللي فوق دا؟ سألت باستنيت بفضول.
- كل شيء بيرجع لأصله، نصيب الأرض فينا بيرجع للأرض ونصيب الكواكب بيرجع للكواكب ونصيب البحر بيرجع للبحر والنور بيرجع للنور في حالة انعقاد الروح. الروح اللي ما بتنعقدش بترجع لجسد جديد وبتأخذ فرصة جديدة.
- طيب أصل القطط إيه؟
- نفس أصل البني آدمين. غبار كواكب معجون بمية البحر.. والاتنين معجونين في النور.
- النور؟
- آه النور هو المادة الأولى للخلق.
- مش فاهمة.
- حبيجي يوم وتفهمي كل حاجة.
- وانت فهمت ازاي؟
- عشان دي مش أول حياة ليا. أنا عشت حيوات كثيرة قبل كدا. وفي كل حياة باتعلم أشياء جديدة واخدها معايا للحياة اللي بعدها. اللي بيعيش حياة واحدة ممكن يحس إن الحياة مالهاش معنى ولا هدف. اللي بيعيش حياتين بيحس إن الحياة شقا وتعب، بس فيها حاجة حلوة، اللي بيعيش ثلاثة بيحس إن الحياة حلوة بس قصيرة، اللي بيعيش أربعة بيبقى حيران يفرح ولا يكتئب. مساكين أبناء الحياة الرابعة بيتعذبوا كثير، ققط كثير بتبقى تعيسة في الحياة دي، وبشر كثير بينتحروا فيها. بداية من الحياة الخامسة بيبنتدي الكائن يهدا ويفهم. في الحياة السادسة

بيتدي يشم ريحة الخلاص لما بيشف النور اللي في نهاية النفق.

- وفي السابعة؟

- دا سر كبير ما يعرفوش غير اللي عاش سبع حيوات كاملين. بس أكيد في الحياة السابعة بيعرف الكائن هو اتخلق ليه وعاش ليه وبيقابل سر وجوده وبيحضنه ويموت في حضنه...

- بس ليه هم سبع حيوات بس؟ ليه مش ١٠ أو ١٠٠ مثلاً؟

- لا سبعة دا عدد رمزي.. بيرمز للكمال. إنما الأرواح زي الطاقة لا تفنى ولا تستحدث من عدم. كل روح جسدها بيبنى بترجع لجسد ثاني فوراً. الروح ممكن تفهم سر وجودها بعد عدد محدود من الحيوانات، ساعتها بترجع للنور الأعظم وتتحد معاه للأبد. وممكن تستمر في عدد غير متناهي من الحيوانات طول ما هي مالاقتش الإجابة على سؤال هي انوجدت ليه واتعلمت ايه من الحياة. بس اللي بيقدر يتذكر سبع حيوات بيتدي يفهم لغز الحياة!

- طيب انت فاكّر تفاصيل حيواتك اللي فاتت؟

- لا.. التفاصيل مش مهمة، بالعكس التفاصيل ممكن تشتت الكائن وتبعده عن غاية وجوده، المهم إنك تتذكري الحكمة والعبرة والمعرفة اللي اتعلمتها من حيواتك السابقة وتشيلها معاك في حياتك الحالية.

- طيب احنا بنموت ليه؟ ولية حياة واحدة مش كفاية؟

- لأننا محتاجين وقت طويل عشان نفهم نفسنا، وعشان نفهم نفسنا لازم نفهم الكون كله. إحنا تاريخنا وتاريخ الكون طويل ومتشابك وعشان نتذكر التاريخ دا كله محتاجين أكثر من حياة.

محتاجين نغيّر أدوارنا مرة نتخلق أغنيا ومرة فقرا، مرة نبقى ظالمين ومرة مظلومين، مرة ذكر ومرة أنثى عشان نفهم كل أسرار الحياة. إحنا احتجنا وقت طويل عشان نبعد عن أصلنا ومحتاجين نفس الوقت عشان نرجع.

- طيب ليه نبعد عن الأصل إذا كان طريق الرجوع طويل؟

- عشان الطريق هدية.

- هدية من مين؟

- من النور.

- طيب على كذا كل القطط وكل البشر بيرجعوا للنور؟

- كله بيرجع لأصله في النهاية، واللي ما بيقدرش بيرجع الأرض عشان يبدأ الرحلة من جديد. بس البشر بيتأخروا في الرجوع للنور أحياناً.

- ليه؟

- عشان ييفكروا كتير ويتوقعوا كتير. عقلهم وتوقعاتهم بيقفوا عائق في طريق رجوعهم، لأن طريق الرجوع شأن خاص بالروح بس. وكمان عشان معظم البشر بيعيشوا كل حياة على إنها الحياة الوحيدة. وكذا العدد بيبقى مالوش قيمة عشان نفس الأخطاء والأوجاع والمآسي بتتكرر في كل الحيوانات وبتبقى كل الحيوانات شكلها واحد ولونها واحد ووجعها واحد. والأشخاص دول ممكن ما يلاقوش طريق الرجوع خالص.

- ليه بيحصل كذا لبعض البشر؟ ليه يتوهوا وهم ماحدش سألهم

أصلاً إذا كانوا عايزين ييجوا الحياة؟

- مين كان ممكن يسألهم؟ هم شركاء من البداية في كل شيء زينا وزى باقي المخلوقات الثانية، هم مش محكومين.

- طيب أنا مش فاكرة إذا كنت عشت قبل كدا حيوات تانية واللا لأ، مش فاكرة إني شريكة من البداية في المشروع دا. انت ممكن تعرف؟

- لما بابص في عينيك باحس أحياناً إنك من خارج الزمن وخارج الحياة، وأحياناً باحس إنك عشت السبع حيوات كاملين، وأحياناً باحس إن النهارده أول يوم من أول حياة ليك. واصلا سيرهما ولم يعكر صفو حديثهما إلا نباح كلب أجبرهما على تغيير مسارهما. مرًا بمبنى كبير وسط القبور يشبه القصور القديمة يتوسط سوره باب حديدي مفتوح. فجأة توقفت باستيت وأغمضت عينها. كانت تشم نفس الرائحة الصادرة من الراديو لكنها أغنية أخرى.

"اللي هويته اليوم.. دايم وصاله دوم". جاء صوت الأغنية من داخل القصر.

على يمين الباب لافتة كتب عليها "بسم الله الرحمن الرحيم ادخلوها بسلام آمنين. أنشأت هذا المدفن فقيدة الغناء العربي السيدة أم كلثوم. لبّت نداء ربها في ٢٢ محرم سنة ١٣٩٥، ٣ فبراير سنة ١٩٧٥".

نظرت باستيت خاشعة للمكان والرائحة الجميلة تملأ أنفها. دخلت من الباب الحديدي ووقفت أمام باب خشبي مقفول تعلوه نجمتان سداسيتان. دفعت الباب فانفتح.

- يا خميس شوف مين اللي دخل الضريح الساعة دي. جاء صوت نسائي من داخل المكان.

- دي قطة يا فاطمة ما تخافيش.
دخلت باستيت بهو المكان يتبعها كشري. غرفة شاسعة ذات
سقف عالٍ جدًّا، سجادة حمراء مستديرة خلفها كنبه زرقاء
تعلوها شهادات معلقة على الحائط. وفي كل ركن من أركان
الغرفة قبر على شكل مستطيل رخامي أبيض لا يعلو عن
أرضية المكان. اختارت باستيت القبر على يسار الباب الذي
دخلت منه وتوجهت نحوه وألقت بنفسها فوقه.

- سبحان الله زي ما تكون القطة عارفة قبر الست أي واحد
فيهم. قال خميس متعجبًا.

أغمضت باستيت عينيها فرأت ما تحت الرخام. قبر كبير ذو
باب حجري تحت الأرض كأنه غرفة في معبد قديم ترقد فيه
الست أم كلثوم بكامل ثيابها ورونقها وقد تشابكت يداها فوق
صدرها. بجوار القبر حجرات مشابهة يرقد فيها والد أم كلثوم
وزوجته وبعض الأقارب. كان كشري يراقب عينيها
المغمضتين وكأنه يموج داخلهما ويرى ما ترى.

فتحت باستيت عينيها ولكنها كانت لا تزال تنظر لعالم آخر
بعيد. تكورت فوق الرخام ونامت فاقترب كشري منها وتكور
إلى جوارها وهو يراقب بطنها ينتفخ ويسترخي مع كل نفس.
كان صوت أم كلثوم يدوي في المكان:

"واحد مفيش غيره.."

ملا الوجود نوره..

دعاني لبيته..

لحد باب بيته..

واما تجلى لي

بالدمع ناجيته..
بالدمع ناجيته"

كان كشري يطرب لسماع الأغنية. كانت باستيت النائمة وحجر
الرخام الذي منحها سريراً يطربان أيضاً.

- من يوم الثورة يا خويا ما قامت وماعدش حد ببيجي يزور
الست. لا عرب ولا مصريين. يعني اللي عملوا الثورة دي ما
كانوش عارفين انهم هيوقفوا حال البلد؟! قالت فاطمة وهي
تجهز سحوراً بسيطاً لزوجها.

- معلىش يا فاطمة بكر اربنا يصلح الأحوال.. ربنا ما بينساش
حد وآدينا أهه عايشين.

اقتربت فاطمة من القطط النائمة وتركت لهما بعض الحليب في
طبق صغير على الرخام.

استيقظت باستيت مع أذان الفجر وراحت تنتظر لكشري بحنان
وهو نائم، كانت تحرق في كل ملمح من ملامحه وتتماهي معه
حتى فتح عينيه وهو يتذوق السلام الذي ملأ عينيه. لأول مرة
في حياته يستيقظ على مشهد جميل كهذا، لأول مرة ينظر إليه
أحد بكل هذا الحب. شربا الحليب وخرجا من الباب مع أول
شعاع نور.

- أنا متأكدة اني أعرف صاحبة القير، قالت باستيت.
- تبقي هي دي الإجابة على سؤالك إذا كنت عشت حيوات قبل
كده ولا لأ، لأن المغنية دي ماتت من ٤٣ سنة. بس المعروف
عنها إنها كانت بتحب الكلاب مش القطط.

- ماتت وما رجعتش ثاني؟

- ممكن رجعت، وممكن ما رجعتش. بس إنسانة زيها مش بالضروري ترجع، لأنها عمرها ما غادرت قلوب الناس. لكن دا مش شرط للانعتاق، بالعكس ممكن الشهرة والمجد يكونوا عائق كبير في طريق الخلاص.

- انت كنت تعرفها؟

- مفيش حد في مصر ما يعرفهاش، مفيش حجر ما يعرفهاش. صوتها كان أكثر صوت الناس بتسمعه في الـ ٩٠ سنة اللي فاتت، الكبار والصغار، الستات والرجال، صبح وليل، في راحة أو في شغل أو في سفر، في القصور أو في العشش. كانت إنسانة خارقة للعادة. كانوا بيسموها "الست" و"كوكب الشرق" و"هرم مصر الرابع". محدش أخذ الألقاب دي غيرها. كان ليها مكانة كبيرة جداً رغم إنها عملت حاجة لو أي ست تانية عملتها كانوا سجنوها أو موتوها. كانت بتعشق الستات، وكانت بتغني لهم، ودي تعتبر جريمة في مجتمع بيمشي وينام ويحب ويتجوز ويغني بأمر الذكور.

- والذكور سابوها في حالها ليه؟

- عشان فرضت وجودها عليهم، خلقت فن عمل تاريخ. في البداية اضطرت تلبس جلاب وعمامة راجل وتنشد أغاني دينية عشان يسمحوا لها تغني، وبعدين استقلت بنفسها وغنت للحب والحنين والوطن وللشمس والنيل والطبيعة، وغنت لله بطريقتها الخاصة. الجمهور كان بيفقد أعصابه وهو بيسمعها وكان بيتفاعل معاها بشكل ما حصلش قبل كدا وما اكرررش ثاني بعد كدا. كانوا زي أطفال يتامى دخلوا مكان واكتشفوا إن أمهم

موجودة فيه. كانوا بيتوحدوا مع المسرح اللي بتغني عليه
ويترموا تحت رجليها ويترجوها تعيد الكوبليه، وحتى اللي ما
كانوش في المسرح كانوا بيتنفضوا جنب الراديو وهما
بيسمعوها. كان صوتها بيحرك في الناس مشاعر ما عرفوهاش
غير معاها. اسمها كان بيبدأ بكلمة "أم" لكن عمرها ما خلفت.
بس مصريين كتير كانوا بيعتبروها أهمهم، خاصة العشاق،
عشان كانت بتغني الكلام اللي هم بيحسوا بيه بس ما يقدروش
يعبروا عنه. كل واحد بيسمعها كان بيحس إنه شاعر، كل واحد
كان بيبقى حاسس إنها بتغني له لوحده. حتى أنا. تصدقي كنت
باحس برعشة وهي بتغني وكنت فاكرها بتغني لي أنا؟
- يمكن فعلاً كانت بتغني لك انت. تعرف إن صوتها هو اللي
أخذني ليك؟ قالت باستتيت.

- مش قلت لك إنها إنسانة خارقة للعادة!

- لو ماما عرفت إنك جبتي معايا مصر القديمة هتقلب الدنيا
على راسنا يا نورا!

قال أشرف وهو يتجول مع ابنته في حقل صغير على أطراف
بحيرة عين الصيرة. كانت نورا تفتش في كل الحفر والقنوات
والمقابر المحيطة.

- مش هاقول لها يا بابا.. هي فاكراني في النادي وانك
هترجعني آخر النهار. وبعدين هي سهرانة الليلة عند طانط
عايدة. انت بتخاف منها ليه يا بابا؟

- ما باخافش يا نورا. بس أنا ما باحبش النكد والخناق، وأمك ما
بتصدق أي حاجة تحصل عشان تعمل تراجيديا رمضانية.

كانت نورا تراقب الحقل والممرات وتنتفض كلما رأت قططاً
شاردة تتعارك. كانت في الماضي تظن أن عالم القطط يتكون
من ركن للأكل في غرفة المعيشة، وصندوق للتبرز في
الحديقة، ومكان فوق جهاز الاستريو أو في سلة الغسيل للنوم،
وورقة صنفرة تحك فيها القطة أظافرهما. وها هي ترى العالم
الحقيقي للقطط. عالم واسع وشرس، بلا أسوار ولا أمان. عالم
مليء بالتراب والضجيج والقتال. فيه تتعقب القطط العصافير
والفئران وتأكل القاذورات والديدان، وتقاتل بعضها بعضاً من
أجل موضع قدم تارة ثم تضاجع بعضها بدون مقدمات تارة
أخرى.

تجول أشرف مع ابنته في شوارع الحي الذي ضاعت فيه
القطة. وضع ملصقاً على جدار محل الجزارة عليه صورة
باستيت وتحتها عنوان المنزل ورقم التليفون. وقفت نورا تتأمل

الصورة وتلامس وجه باستيت بأصابعها. توقف أشرف أمام البيت الأزرق من جديد ووضع رأسه على الجدار وظل ساكنًا، فسألته نورا: هو دا البيت اللي انت اتولدت فيه يا بابا؟

- لا يا حبيبتى، دا بيت الجيران. احنا بيتنا اللي في آخر الشارع.

- البيت دا حلو أوي.

- بس الحياة فيه ما كانتش حلوة. أهله اضطروا يسيبوه ويهربوا من الحي، عشان جريمة ما ارتكبوهاش.

واصلا السير دون التوقف أمام بيت أشرف القديم حتى وصلا لميدان السيدة زينب وراحا يبحثان حول المسجد.

- تعالي يا نورا ندعي قدام المقام إن ربنا يرجع لنا باستيت بالسلامة!

- هي مين السيدة زينب دي يا بابا؟ سألت نورا بصوت خافت.

- دي حفيدة النبي عليه الصلاة والسلام، وتقدرى كدا تقولي عليها "أم المصريين". كل اللي عنده سؤال أو ليه حاجة ببيجي يمسك قضبان المقام ويقول "يا أم العواجز!" هي عندنا زي ستنا مريم عند المسيحيين اللي بيدعوا لها ويقولوا "يا عدرا يا أم النور" وزي إيزيس عند قدماء المصريين اللي كانت فاردة جناحاتها عشان تحمي مصر وشعبها. كل الناس في كل الدنيا محتاجين أم يرجعوا لها لما بيكونوا تايهين.

- هو ليه لازم نصلي وندعي لما بنقع في مشكلة يا بابا؟ هو مش المفروض ربنا بيعرف كل حاجة وشايف مشكلتنا وحاسس بألمنا من غير كلام؟

-
- آه طبعًا ربنا مش محتاج مننا صلا ولا صوم. وهو مُطَّلَع وشايف كل شيء. بس احنا اللي محتاجين نتواصل معاه، الصلا يعني صلّه بين العبد وربّه. بس قبل كدا لازم العبد يكون على صلة بنفسه الأول. الصلا معناها إني أنسى كل حاجة تانية وأي حد تاني وأركز على قلبي بس. في القلب دا بتلاقي الأمل والخير وبتلاقي ربنا. ربنا بيقول إنه أقرب لنا من حبل الوريد.
- طيب ما دام ربنا في قلبنا محتاجين جوامع وكنائس ليه؟
- محتاجين نشوف ناس زينا تايهين أو عشانين، عشان ما نحسش إننا لوحدنا في الحياة.
- طيب كدا السيدة زينب وسيط بينا وبين ربنا؟
- لا.. أستغفر الله، ربنا مش محتاج وسيط. السيدة ست طيبة وحنينة وبتحبنا، واحنا بنحبها. وأي مكان فيه حب بتلاقي ربنا فيه على طول، لأن الله محبة.
- طيب هي السيدة زينب مدفونة ورا القضيان دي بجد؟
- والله المصريين بيقولوا إنها مدفونة هنا والسوريين بيقولوا إنها مدفونة في جامع السيدة زينب في دمشق.
- طيب هندعي في المقام ازاي واحنا مش متأكدين إذا كانت مدفونة هنا واللا لأ؟
- شوفي يا حبيبتى.. مش مهم مين بنى الجامع ومش مهم مين مدفون فيه.. ومش مهم حتى إذا كان جامع أو كنيسة.. بيوت ربنا بتكتسب قدسيته من دموع الناس اللي بتصلي وتدعي فيها. الشيء المقدس بجد هو حنين الناس للحب والحقيقة...
- طيب على كدا يبقى كل الأديان على حق؟

- كل دين فيه مفتاح للحقيقة، بس للأسف كل دين برضو فيه حواجز وأسوار بتمنع الناس من الوصول للحقيقة. وأكبر حاجز هو إن أتباع كل دين فاكرين إن دينهم هو اللي محتكر الحقيقة والتانيين كلهم غلط. عاملين زي سبع صيادين لقوا خزنة قديمة في سفينة غرقانة. الخزنة كانت مقفولة بسبع أقفال. وقف كل واحد فيهم يتخيل الخزنة فيها إيه. واحد اتخيل إن فيها كنز، وواحد اتخيل فيها كتاب أسرار الكون، وواحد تاني قال دي فيها سحر اسود هياذينا، وواحد قال دي فاضية وما جواهش غير الصدا اللي باين برّاها.. ابتدى الصيادين يتخانقوا على اللي جوا الخزنة قبل ما يعرفوا محتواها إيه وموتوا بعض وغرقوا الخزنة دم. كان ممكن يوفروا الجهد والدم دا كله لو كانوا دورّوا على مفاتيح الأقفال اللي كانت موجودة في نفس السفينة الغرقانة. وبعد سنين جم أولادهم وأحفادهم وبدأوا يتخانقوا على الأقفال وبرضو ما دوروش ع المفاتيح. جابوا شواكيش وفضلوا يضربوا ع الأقفال وبرضو ما فتحتش. في النهاية قررت كل مجموعة إنها تختار قفل وتسجد قدامه احتراماً لدم شهدائهم من الأجداد والأحفاد اللي ماتوا بسبب القفل دا، وبعدين رجعوا يتخانقوا تاني أي قفل ينتمي لأي مجموعة. شيء محزن جداً يا بنتي إن كل يوم ناس بتموت عشان رسالة محدش فتحها وقرأها. والمصيبة الكبيرة إن كل واحد مفكر ان ربنا بيحبه هو وبيكره التانيين وإنه بيفرح لما بيكرهم أو حتى يقتلهم.

- صحيح يا بابا.. إحنا ليه بنورث الدين؟ ليه مش كل واحد يختار دينه بعد ما يكبر ويقرا ويفهم الرسالة بنفسه؟

- والله عندك حق يا نورا. أنا فكرت في الموضوع دا بعد انتِ ما اتولدتى واحنا بنكتب في شهادة ميلادك إنك مسلمة رغم إنك ما اخترتيش تبقي مسلمة. الناس بطبيعتها ما بتحبش الاختلاف. عايزين كل اللي حوالهم يكونوا مؤمنين بنفس الدين ونفس العادات ونفس الأفكار ومحتاجين يكرهوا نفس الأعداء. ولو حد شدّ عنهم وآمن بشيء تاني أو ترك الدين بيخافوا منه ويهاجموه ويمكن يموتوه لأنه بيزرع معتقداتهم اللي ورثوها بدون اختيار. بس فعلاً دا مالوش علاقة بالإيمان ولا بالعدل. مش عدل أبداً إن المسلم بس هو اللي يمتلك الحقيقة عشان اتولد بالصدفة مسلم، والمسيحي أو حتى المجوسي ما يلاقيش الحقيقة عشان بالصدفة اتولد في عيلة مسيحية أو مجوسية. ربنا أرحم من كذا بكثير. عشان كذا حط مفتاح الحقيقة داخل كل دين وداخل قلب كل إنسان حتى لو مالوش دين، بس ترك للإنسان الحرية في إنه يدور على الباب بنفسه ويفتحه بنفسه ويمشي في طريقه بنفسه. لكن للأسف معظم الناس بتتجاهل الأبواب والمفاتيح وبتعبد الأفعال وتطوف وتبكي حوالين الأسوار. رغم ان كل الأسوار من نفس الحجر، من نفس الجبل ومن نفس الخوف. ورغم إن الإيمان طريق يمشي فيه الإنسان لوحده بعد ما يفتح الباب ويتخطى الأسوار عشان يوصل لربنا.

- وانت فتحت الباب يا بابا؟

زفر أشرف زفرة قوية ثم قال: لسه بادور ع المفتاح يا نورا.
- بس ازاي انت بعد كل السنين دي وبعد كل اللي اتعلمته لسه ما لاقيتش المفتاح؟

- المعرفة لوحدها مش كفاية يا حبييتي.. لازم الإنسان يتخطى الاختبارات اللي الحياة بتحطها في طريقه. وأنا للأسف فشلت في معظم الاختبارات دي لحد دالوقتي!

وقفت نورا أمام المقام المغطى بغطاء أخضر مكتوب عليه: "يا أم المصائب" وبجوارها على الجانبين نساء ورجال خاشعون يتمسحون بقضبان المقام ويضعون عليه رءوسهم ويتمتمون بأدعية وتوسلات. سمعت نورا جارتها وهو تستجدي السيدة زينب أن يشفي زوجها المريض، بينما دعا رجل أن يحصل ابنه في الثانوية العامة على درجات تؤهله لدخول كلية محترمة. ووقفت فتاة في عمر العشرين تعترف للسيدة بذنب لم تفصح عنه في كلامها، لكنها وعدت أم العجائز أنها لن تعود إلى هذا الذنب أبداً، لو ربنا سترها.

قالت نورا: "يا أم العجايز.. بصراحة أنا ما باعرفش أصلي أو أدعي.. وأنا ما عنديش طلب معين ليكي. أنا بس عايزاكي تسمعي حكايتي. أنا عندي قطة اسمها باستيت. باستيت هي أجمل حاجة في حياتي. دي مش مجرد قطة.. دي زي صاحبتني وأختي وأمي. محدش في الدنيا بيفهمني غيرها.. بتتكلم معايا كثير بس من غير كلام. بتشوف عينيا تعرف أنا حاسة بإيه وبفكر في إيه.. كانت لما بتشوفني باعيط تقعد قصادي وتفتح عينها وتقلها ببطء.. هم القلط كدا ببيوسوا بعيونهم. باستيت ضاعت مني امبارح، ضاعت هنا جنبك. وهي واحشاني أوي، حاسة ان الحياة مالهاش قيمة من غيرها. كل ما ابص على الأماكن اللي كانت بتقعد فيها في البيت قلبي بيوجعني. أنا مش

عايزاها ترجع عشان تسليني أو تواسيني، لأ.. أنا عايزاها
ترجع عشان باحبها أوي وعشان مش عايزة حاجة وحشة
تحصل لها، عايزاها ترجع عشان نفسي أديها حب كثير. أنا
بصراحة لسه مش متأكدة إذا كنت تقدري ترجعيها لي أو لأ،
بس بابا قال إنك ست طيبة وحنينة. وأنا باصدق بابا. أنا بس
عايزة أعرف إذا كانت باستيت بخير أو لأ. شكرًا إنك سمعت
حكايتي".

فجأة انتابت نورا رعشة شديدة وبدأت الدموع تنهال من عينيها
وهي تتشبث بقضبان المقام. احتضنها والدها وسألها إذا كانت
بخير فأجابت: أنا كويسة!

خرجا من المسجد وتوجها لسوق الخضار للبحث عن باستيت.
وقف أشرف عند كل محل ليشم الخضار والفاكهة، بينما نورا
تتنظر تحت المناضد والكراسي. لاحظ أشرف أن وقوف نورا
أمام المقام أراحها كثيرًا فقد ملأت وجهها ابتسامة هادئة وهي
تبحث عن قطتها.

- تعالي ندور عند "بحة" .. فيه ققط كثير بتستنى هناك.

- إيه بحة دا؟

- دا يا ستي ملك الحلويات في المنطقة.

- بس الققط ما بتاكلش حلويات.

- لا.. الحلويات في السيدة زينب يعني الرنتين والكرشة

والممبار وكدا. بحة وأبو السعود هم المسيطرين هنا. أما

الركيب دا يبقى ملك الكوارع ولحمة الراس.

- إيه دا؟ في ناس بتاكل الحاجات دي؟

-
- طبعاً. دي كانت أكلتي المفضلة.
- طيب بطلت تاكلها ليه؟
- عشان ماما يا ستي بتقرف منها.
- بصراحة فاهماها.
- شايفة المطعم اللي هناك دا؟ تقريباً نص جسمي معمول من
المطعم دا.
- فيه مطعم اسمه "الجحش"؟ هو ليه أسامي المطاعم غريبة
هنا؟
- الجحش دا ملك الفول والطعمية في مصر.

توجه أشرف نحو سينما الشرق وسلم على عم يونس ودس
١٠٠ جنيه في جيب جلاباه. وقفت نورا تراقب باب السينما
وتنظر تحت السيارات المركونة بجوارها وهي تقول "ميااااو"
بصوت عذب رقيق وابتسامتها الجميلة تزين وجنتيها.
- السينما دي بقي كانت وكر الشقاوة بتاعتي وأنا صغير. كنت
أخذ فلوس الدروس الخصوصية من بابا وادخل بيها السيما.
بس دي مش سيما زي أي سيما. دي ما كانتش بتعرض فيلم
واحد في الحفلة، وإنما ثلاثة. كنت أدخل الساعة ١٢ الضهر
أخرج أربعة ونص العصر، فيلم لبروس لي وفيلم لإسماعيل
ياسين وفيلم لنادية الجندي. وكل فيلم وله جمهوره. فيه اللي
جاي يتسلى وفيه اللي جاي يستفرد بحبيته وفيه اللي جاي
عشان ما عندوش حبيبة فيتبقى نادية الجندي حبيته لمدة ساعة
ونص. كنا بنقعد نكح من السجاير ونطلع من السيما مش شايفين
قدامنا، بس والله كانت أيام حلوة...

كانت نورا تبتسم وأباها يقص عليها مغامرات صباه. فهي لم تراه مبتسماً منذ زمن بعيد.

- طيب ما دام انت اتربيت في السيدة زينب والمكان هنا واحشك أوي كدا، ليه ما تنقلش عيادتك هنا وترجع تعيش وسط الناس اللي بتحبههم؟ ولأ خايف من ماما؟

- لا.. في دي ماما بريئة. أنا اللي خايف من السيدة زينب. حاسس إنني مش هاقدر أتأقلم على العيشة هنا تاني، رصيدي نفذ.

- يعني ايه رصيدك نفذ يا بابا؟

- غلطت غلطة ما ينفعش تتصلح..

زفر أشرف زفرة قوية وصمت، ثم استطرد: وبعدين محدش محتاج جراحة التجميل في السيدة. الناس هنا بسطاء وراضيين بعيشتهم وأشكالهم. جراحة التجميل دي للي معاهم فلوس كثير ووقت فراغ كثير. اللي مش عاجبهم اللي جواهم ومش قادرين يغيروه، هم اللي بيحاولوا يغيروا أشكالهم من برّا.

- ويا ترى الناس هنا راضيين عشان فقرا وما عندهم مش حاجة يخسروها، واللا فقرا عشان راضيين وما عندهم مش طموح؟ يعني مثلاً لو اديناهم فلوس وسكنّاهم عندنا في التجمع، مش هيبقوا راضيين؟

- سؤالك حلو يا نورا. أكيد الناس هنا مش ملايكة وفي التجمع مش شياطين، بس أعتقد إن الحكاية مش حكاية فقر أو غنى. الناس هنا مغروسين في قلب مصر اللي بجده، التاريخ بتاع البلد كله في الشوارع والبيوت والمساجد والكنائس والبازارات

والقهاوي والتراب، وفي الهوا اللي بيتنفسوه. جينات مصر
الأصلية موجودة هنا مش في التجمع.
- طيب يا بابا أنا هاعمل معاك ديل: تروح تفرجني على جينات
مصر في خان الخليلي، وأجي معاك بعد المغرب عشان تتعشى
عند بتاع الحلويات دا..
- ماشي بس انت نباتية.
- نفسي أشوفك وانت بتاكل الأكلة اللي بتحبتها. وبعد ما تشبع
نروح ناكل فول وطعمية عند الجحش عادي.
- خلاص يا ستي.. ديل!

بعد مغادرة المقابر أكمل كشري وباستيت طريقهما في أحياء المدينة نزولاً باتجاه حي الحسين. كان سكون الصباح يسمح لهما بتمييز مصدر كل صوت. كان لا يزال لكل صوت ملامح وحواف وشكل ومصدر، ولكن ما كان ليوم الأمر أكثر من ساعة حتى أصبحت كل الأصوات كتلة ضجيج واحدة لا ملامح لها. كانت باستيت تصغي باستمتاع لوقع خطواتها على الأرصفة وهي تتناغم مع وقع خطوات كشري. فهي لم تمش من قبل على رصيف في مدينة عند الفجر ولم ترافق قطاً آخر في أية رحلة. كانت أشياء صغيرة تبهجها في هذا الصباح وكانت تترك ذلك وتخجل من الأمر. أرادت أن تقول لكشري إنها سعيدة ولكنها ترددت، لأنه في عالم البشر -من حيث تأتي- كانت السعادة تحتاج إلى تبرير وسبب مقنع كي تكون منطقية. أن يكون أحد سعيداً برائحة الصباح ووقع أقدامه فوق الرصيف يعتبر عذراً واهياً لسعادته. فاختارت أن تسكت.

كانت باستيت تراقب بفضول وصمت بداية النهار في المدينة. حركة الباعة الذين يُخرجون بضائعهم إلى الشارع، ويرشون الماء أمام دكاكينهم، عربات الخضار التي لم تظهر بكامل جمالها بعد، ورائحة التوابل والعطور والأقمشة، وأصوات مطارق الحرفيين وهم يدقون برفق على أوانٍ من النحاس، والقطط التي تنمط وتنثاءب على جانبي الطريق.

- هل البشر بيعملوا كدا كل يوم؟ مش بيعسوا بالملل؟ سألت باستيت.

- الملل مش متاح أصلاً للكائنات اللي مالهاش خيار في ترتيب ظروف حياتها.

- تفنكر هم سعادة؟

- السعادة مش شيء ثابت أو عتبة نوصل لها ونرتاح. ممكن نحس بسعادة لو أكلنا وجبة لذيذة أو لقينا مرقد مريح أو قدرنا نخلص نفسنا من مأزق مع القطط الشاردة.

صمتت باستيت وهي تستمع إلى هذا الكلام. فلماذا يكون لرأيها أية أهمية وهي التي لم ترَ ولم تختبر شيئاً من قبل؟ كانت تميل إلى أخذ كلام كشري على محمل الحقيقة وتحاول أن تسكب شعورها ليأخذ شكل الوعاء الذي يرسمه هذا القط الهادي بكلماته.

ولكن موضوع السعادة كان دائماً يشغلها منذ أيام وجودها في الكومباوند. ولأنها عاشت مع بشر طوال حياتها كانت ترى وتشم كل محاولاتهم للوصول إلى الفرح. كما كانت تشم عجزهم عن الوصول لأي سعادة حقيقية تدوم.

وقفت باستيت فجأة مكانها وقالت:

- شُفت الأطفال اللي بيتخانقوا هناك عشان كورة صغيرة؟ بيدوروا على السعادة. والعَمَّال والبياعين اللي بيشتغلوا نفس الشغلانة كل يوم عشان يكسبوا ويعيشوا بيدوروا على السعادة برضه. ولنفس السبب بيتجوزوا ويخلفوا وبيعملوا كل حاجة تانية.

- بس هم بيعملوا حاجات توجع الدماغ وبيبقى واضح إنها ما بتوصلش للسعادة. بيفضلوا يلفوا حوالين نفسهم وما بيوصلوش

لأي مكان. أي حد حوالهم بيبقى شايف إنهم في مأساة إلا هم.
قال كشري.

- والمأساة دي جاية منين؟

- أظن إن مأساة البشر إنهم مش عارفين هم بيدوروا على إيه.
بس أنا عرفت انهم بيدوروا ع السعادة. بيصحوا من النوم
الصبح يدوروا على أي شيء يفرحهم. قهوة أو كلمة أو أغنية
أو فطار شهوي.

- صح! نورا بتدور ع السعادة في الأغاني اللي بتغنيها بصوتها
الجميل وهي مغمضة عينيها. أشرف بيدور ع السعادة في
الشغل عشان بيشتغل كثير قوي ولما يتكلم عن شغلانته تلاقيه
بيبان سعيد، بس سعادته بتختفي بعد شوية. ورشا بتدور ع
السعادة في اللوح الصغير اللي بنتشيله في إيديها طول الوقت
وتفضل تنقر عليه بصوابها، وفي المراية وفي صندوق
الصور المتحركة.

- وانت عرفتني ازاي؟

- دي ببيان عليها جدًا. ساعات بتنقر في اللوح اللي في إيديها
وتشوف فيه حاجة تفرحها، تقوم تشيلني بين إيديها وتضحك
بصوت عالي وحركتها تزيد وترقص أحيانًا. وساعات تبص
في نفس اللوح وتبتدي تصرخ لو حد اتكلم معاها، أو لو لعبت
بالطائر بتاعي حوالها، لو مرت نسمة جنبها تنتجن. تصوّر كل
الحاجات دي تخرج من اللوح الصغير اللي في إيديها؟

- ليه الناس كلهم زي بعض وعندهم نفس المأساة.

- الناس في الأصل مش شبه بعضهم يا كشري.. كل إنسان
فريد من نوعه، زي الأصوات اللي سمعناها سوا بعد الفجر..

كل نداء، كل مواء، كل خطوة، كل طرقة، كل خروشة، كانوا
مختلفين عن بعض وكانوا واضحين.. بس بعد ما النهار بدأ
انصهرت كل الأصوات في كتلة ضجيج واحدة، وكل إنسان
انصهر في كتلة زحام واحدة ليها نفس الهدف ونفس المشاكل
والمخاوف. هو دا اللي بيخلي الأصوات تفقد قيمتها، وبيخلي
البشر يضيعوا فرصتهم للوصول للسعادة!

مصباح نحاسي قديم يحمل على جلده تجاعيد حرفة أقدم. يسكب المصباح ضوءه على مرآة أنتيكة من القرن الثامن عشر. المرأة تلقي بنورها المستعار على أحجار صغيرة ملونة وخرز أزرق، وعلى وجه نورا الذي تملأه الدهشة وهي تراقب المرأة والسوق القديم. عيون نورا تحولت إلى منظر مشكال تتغير فيه ألوان البازار في كل التفاتة، لكن نفس قالب الماندالا يبقى مسيطرًا على كل صورة. كل شيء دافئ ومريح في المكان: سقف البازار، الألوان، الأواني، الأقمشة، المشربيات والابتسامات. والقطط التي تتجول في سلام بين الأزقة. كل شيء يتحرك، وكل شيء باقٍ.

"خان الخليلي يا نورا هو أقدم ماركت في التاريخ. بس بدل الأرفف البضائع بتتحط هنا في شوارع. فيه شارع للذهب وشارع للفضة وشارع للصواني وشارع للقزاز وشارع للملابس والأقمشة وشارع للعطور وشارع للتوابل وشارع للتحف والأنتيكات. كل الشوارع اللي حوالين خان الخليلي من الأزهر لحد العتبة بقت جزء من خان الخليلي غصب عنها أو برضاها. بقى فيه شارع للشيلان الكشمير، وشارع للطرابيش التركي وشارع لبدل الرقص الشرقي، وشارع للشيش والمعسل. حتى الملابس الداخلية بقى ليها شارع. كل بيت ثلاث أدوار. الدور الأرضي ورشة جنبها بازار، الدور الثاني مخزن والدور الثالث ساكنين فيه التجار والحرفيين. في خان الخليلي بس ممكن تلاقي عائلات شغالة في نفس الحرفة ونفس التجارة بقالهم أكثر من ٣٠ جيل".

وقفت نورا صامتة أمام أجوله من التوابل متراسة على هيئة
أهرامات ملونة. فهذه زهرة زرقاء وهذا زعفران أحمر وهذه
حلبة صفراء وهذا فلفل أسود وهذه جوزة الطيب وهذا كركديه.
خرج أشرف من الدكان المجاور يحمل لفافة كبيرة ووقف
يراقب نورا الغارقة في الألوان. أطل النظر إلى عينيها التي
تعكس طبقات التاريخ وألوانه، ففطن لأول مرة أن ابنته صارت
بالغة وجميلة. أحس بشيء من الحزن بسبب العزلة التي
فرضتها رشا على ابنته التي دخلت سن المراهقة دون أن ترى
من مصر غير التجمع ومصر الجديدة والساحل الشمالي. كانت
رشا لا تثق بمصر وشعبها وتشعر بأنهم يبدرون شرًا لها
ولا بنتها الوحيدة. ولكن أشرف في ذات الوقت كان يحس بالفرح
والفخر وهو يراقب ابنته وهي لا تشعر بالغربة في أحياء
القاهرة القديمة. استفاقت نورا بعد قليل فسألت أشرف ماذا بيده.
قال لها إنه اشترى بعض مكونات مشروب "الياميش" الذي
كان والده يصنعه بنفسه في شهر رمضان للإفطار.

"بصراحة مش قادر أفهم ليه الناس ما بنشربش الياميش غير
في رمضان بس، مع إنه أذ شيء شربته في حياتي، خاصة
ياميش بابا الله يرحمه كان له مذاق خاص. كان بينقع بلح أبريم
وقمر الدين وتين برشومي مجفف وزبيب في مية لمدة عشرين
ساعة، وبعد مرور ١٠ ساعات كان يضيف حبهان وجوزة
الطيب وعود قرفة وشعرتين زعفران إيراني وحبّة مستكة.
وبعد مرور العشرين ساعة، اللي هو وقت الإفطار يعني، كان
بابا يحط فستق ولوز وتلج ويعصر ليمونة خضرا ويقلب
المشروب. تخيلي صوت التقليل دا لوحده كان من أكثر الأشياء

المبهجة في طفولتي. كنت باحب رمضان بس عشان ياميش أبويا. دا كان بالنسبة لي وجبة كاملة لوحده".

- إيه المستكة دي يا بابا؟

- استنتي هاشتري لك شوية عشان مالاقيتش في المحل دا.

بعد بحث مضمّن في محلات العطارين استطاع أشرف أن يشتري ١٠٠ جرام مستكة بمبلغ ٣٠٠ جنيه. أعطى أشرف نورا سبع حبات مستكة واحتفظ بالباقي لنفسه. تأملت نورا الكريستالات السبعة وسألت أباهما إذا كان من الممكن أن تتذوقها.

- طبعًا. ممكن تمضغيتها زي اللبان، مفيدة جدًا للأسنان واللثة، وممكن تستخدمها في عمل الشورية وممكن تعمل منها عطور أو تستخدمها كبخور ضد الحسد، وممكن تتعالج بيها من آلام البطن. أبويا الله يرحمه كان دايماً شايل مستكة في جيبه عشان كان عنده قرحة في المعدة، وما كانش بيرححه غير المستكة. وأنا ورثت منه القرحة وبرضه ما بيرحنيش غير المستكة.

- معقول يا بابا تبقى دكتور وتأخذ لبان لما تبقى عيان؟

- ما هو اللبان دا بقالو آلاف السنين دوا معترف بيه. حتى الطب الحديث ابتدا يستخدمه كمكون من مكونات علاج البطن والسرطان. شركات الأدوية في اليابان وأمريكا بيتنافسوا مين يكوّش على أكبر مخزون من المستكة في العالم، عشان كدا ما بقيناش بنلاقيها في مصر زي زمان، لأن شجرة المستكة لا تنبت إلا في مكان واحد في العالم: جزيرة صغيرة جدًا في البحر المتوسط اسمها خيوس تابعة لليونان. الفراعنة زمان

كانوا يبسافروا بالقوارب أسابيع عشان يوصلوا للجزيرة دي
عشان يجيبوا المستكة.

- بس دي شكلها زي الحجارة مش زي ثمار أي شجرة.
- أيوه المستكة مش ثمار، دي دموع الشجرة. بيسموها
"الشجرة الباكية" لأن المستكة بتخرج من جذعها على شكل
صمغ سايل. سكان جزيرة خيوس زمان كانوا بيسموا الصمغ دا
"دموع الله".

- طيب الفراعنة كانوا محتاجين دموع الله دي في إيه؟
- كانوا بيستخدموها برضه كعلاج وكعطر. بس الاستخدام
الأهم ليها كان إنها جزء من تركيبة بخور سرية في المعابد
اسمها "كيفي". كانوا بيقلوا إن التركيبة دي لو اتعملت صح
واتحرق في اليوم الصح بتوقف الزمن وبتوصل الناس
للأبدية. كانوا بيستخدموا البخور دا أثناء الصلوات وأثناء
مراسم التحنيط.

- وتركيبه الـ"كيفي" دي معروفة؟
- والله سر الـ"كيفي" زي سر التحنيط: لسه ما اكتشفهوش
بشكل نهائي لحد دلوقتي. بس فيه نص منحوت على جدران
معبد إدفو في أسوان وفيه مخطوطة بردية هيروغليفية من أيام
الفراعنة موجودة في جامعة لايبنتزيج في ألمانيا فيهم مكونات
التركيبة. عشر مكونات رئيسية لصناعة العطر، وستة إضافية
لإتمام البخور السري. العشر مكونات الأولى ببيجوا من أهم
أشجار العالم القديم: أول حاجة المستكة من اليونان، وقصب
الوج من الهند، واللبان المرّ من الصومال، ولبان جاوي من

جزيرة سومطرة، خمسة خشب الأرز من لبنان، ستة خشب السرو من سينا، سبعة ثمار العرعر من سوريا.. ثمانية...
"الله أكبر الله أكبر"

قطع أذان العصر القادم من مسجدي الحسين والأزهر كلامهما، فتوجهنا نحو شارع المعز. بعد أن انتهى الأذان سألت نورا أشرف أن يكمل لها باقي وصفة الـ "كيفي".

- قلنا مستكة وقصب الوجد واللبن المر ولبان سومطرة وخشب الأرز والسرو وثمار العرعر.. يبقى فاضل الحبهان من العراق والقرفة من سريلانكا، والزنجبيل من نيجيريا.
- الفراعة كانوا يوصلوا الأماكن دي كلها؟

- أيوه.. الفراعة في الوقت دا كانوا أكبر قوة وأعظم أسطول في العالم، لكن عمرهم ما خرجوا بسفنهم عشان يحتلوا بلد حد. كان عندهم فضول وكانوا بيحبوا يجمعوا روايح وألوان ومذاقات الدنيا كلها في مصر، عشان كذا السفن كانت بترجع محملة توابل وعطور وأحجار من كل الأنواع. الفراعة كانوا متواصلين مع الأرض والكون والنجوم أحسن منا النهارده بكتير.

- وإيه المكونات الستة الفاضلين؟

- العشر مكونات الأولى ممكن يعملوا عطر جميل وبخور حلو. بس عشان البخور دا بيقى له مفعول السحر، كان المصريين بيضيفوا ليهم ست مكونات مصرية: الحنة والنعناع والزبيب وزهرة السوسن وزهرة اللوتس، ونقطتين عسل.

- طيب ما دام المكونات معروفة، ليه المصريين ما عادوش بيعملوا الـ "كيفي" يا بابا؟

- أولاً إنا كمصريين نسينا روح البحث والفضول اللي كانت موجودة أيام الفراعنة وانفصلنا على العالم. أتحدّك لو لقيت عشر مصريين يعرفوا كلمة "كيفي" أساساً. المراسم دي محتاجة إيمان حقيقي ومحتاجة صبر طويل، وأنف حساس. واحنا مناخيرنا نحست من كتر شم عوادم السيارات، وروحنا بقت في مناخيرنا من ضغوط الحياة. البطء هو مفتاح السحر، بس احنا بقينا مستعجلين وعايزين كل حاجة بسرعة. ثانياً سر الـ"كيفي" مش في المكونات بتاعته بس، وإنما في المقادير وفي ترتيب وضع كل مكون في المبخرة. فيه برديات كتيرة فيها المكونات، لكن كبار الكهنة في المعابد بس هم اللي كانوا عارفين الخلطة والمقادير والترتيب وكانوا بينقلوها شفهيّاً من كاهن لكاهن. وبما إن الديانة المصرية القديمة اندثرت، راح معاها سر خلطة الـ"كيفي".

- والمخطوطة اللي في ألمانيا مفيهاش حاجة عن الخلطة؟
- مخطوطة ألمانيا بتقول المفروض كل مكون يتحط بنسبة معينة في يوم معين في توقيت معين لمدة ١٦ يوم متتالية بشرط إن آخر مكون يتحط في ليلة اكتمال القمر. بس للأسف مفيهاش ذكر للمقادير والترتيب، لأن دا زي ما قلت لك سر، الكهنة بس اللي بيعرفوه.

- طيب بعد المكونات ما تكمل بيحصل إيه؟
- في ليلة اكتمال القمر الكهنة كانوا بيحرقوا الخلطة في المبخرة أثناء قراءة أجزاء من كتاب الموتى. الدخان اللي كان بيطلع من المبخرة كان له مفعول زي المخدر.
- مخدر ازاي؟ وليه؟

- النباتات دي مسكّنة للآلام عشان فيها مادة مخدرة، ولما بتتحرق مفعول المخدر بيتضاعف زي الحشيش كدا. والدخان بتاعها بيخدر المخ وبيأخذ أرواح الناس لمناطق تانية ما كانوا يعرفوها قبل كدا، زي زورق الموت اللي كان بياخذ الميت أيام الفراعنة من ضفة النيل الشرقية اللي هي ضفة الحياة إلى ضفته الغربية اللي هي ضفة الخلود. المصريين القدماء كانوا بيؤمنوا إن حواس الإنسان يجب ألا تكون عقبه في طريق الروح، وإنما مرشد ليها. كانوا بيؤمنوا إن بخور الـ"كيفي" بيقود الأرواح إلى رع إله الشمس.

- معقول المخدرات ممكن توصل الناس للروحانيات والخلود؟
- والله الموضوع دا معقد قوي يا حبيبتى. طبعًا أنا كأب وكطبيب لا يمكن أنصح حد إنه يتناول المخدرات. بس بصراحة بافهم قوي اللي بيتعاطوها. الفكر جبار وبيعطل الناس وبيمنعهم إنهم يحسوا بنفسهم، وبيتلاعب بالحواس ويخلي الإنسان عبد لجسمة وغرايزه. بعض الناس لما بيتعاطوا المخدرات بيتحرروا من جبروت العقل وبيحسوا بصفاء روجي غريب وبيحسوا إنهم قرييين من ربنا قوي عشان حاجز الفكر ما بيبقاش عائق بينهم وبينه. ساعات والمرضى بتوعي تحت تأثير المخدر في العمليات بيقولوا كلام عميق أجمل من الشعر رغم إنني عارفهم وهم فايقين بيقولوا سطحيين جدًا ولا يمكن يطلع منهم كلام كبير زي دا. المخدر ييفصل الإنسان عن عقله وبيربطه بلا وعيه. اللاوعي دا بقى زي قاع البحر مليان درر مدفونة. وقاع البحر دا هو المكان اللي الناس نفسها توصل له بس خايفة من الغرق. كلهم عايزين يوصلوا للسما وعايزين

يشوفوا ربنا، بس خايفين من الموت وخايفين من الوقوف بين
إيدين ربنا. الهنود الحمر بيدخنوا مخدرات وهم بيصلوا عشان
يوصلوا للاوعي ويتواصلوا مع أرواح أجدادهم. الإخوة في
اليمن بيمضغوا نبات القات المخدر عشان يصفوا نفوسهم. أمي
الله يرحمها كانت بتاخذ نشوق، وكانت بتقول "عشان راسي
تنهد شوية وتبطل تفكير". هنا ورا الأزهر فيه حي اسمه
الباطنية. الباطنية كانت في الأصل جماعة صوفية بنتعبد
وتتأمل في ملكوت الله تحت تأثير الحشيش. الجماعة دي هربت
من الاضطهاد في إيران وحت تستخبى في مصر وجابوا
الحشيش معاهم وسموا الحي على اسمهم. للأسف المكان بقى
وكر لتجارة المخدرات وشباب كثير فقد صحته ومستقبله
بسببه. ناس كثير نفسها تعطل عقلها وتفكيرها بس مش قادرين.
رسامين وملحنين كثير ما بيعرفوش بيدعوا إلا تحت تأثير
الكحول أو المخدرات. الشباب اللي بيرقصوا في الديسكوهات
وفي الحفلات الغنائية تحت تأثير الـ"إكستاسي" و"الفودو"
ويطوحوا راسهم يمين وشمال ببيقوا عايزين ينفصلوا عن
عقلهم اللي مكتفهم ويتصلوا باللاوعي. حتى جماهير كرة القدم
في لحظة إحراز فريقها لهدف بيتحرك فيهم الأدرينالين
ويصيبهم بهستريا بتخدر مخم وتفصلهم عن أفكارهم
وتحسسهم إنهم كلهم كيان واحد سعيد. عدم الاتصال باللاوعي
دا شيء مؤلم جدًا يا نورا للي نفسه يوصل.
- طيب اللاوعي دا فيه إيه بالطبط؟
- فيه بصمة وجودنا الأولي. فيه أصلنا. فيه مصدر سعادتنا. فيه
الحب. فيه ربنا.

- يااااه.. كل دا المخدرات ممكن تعمله؟
- لا يا حبيبة بابا، دا انا بادردش معاك عن أيام الفراغنة
والمستكة. إوعي أصحى بكرا ألاقي سيجارة بانجو في إيدك
وتقولي لي بادور على لا وعيي! معظم اللي بيخشوا في سكة
المخدرات بيدمروا نفسهم ولا بيحصلوا وعي ولا لاوعي. وبدل
ما يتحرروا من استعباد عقلهم ليهم، بيقعوا في عبودية المخدر
وعبودية جسمهم اللي بيدمن المخدر.
- ما تخافش يا بابا. أنا ما باطيقش ريحة سجايك أصلاً. كفاية
عليا المستكة!

وضعت نورا حبة مستكة في فمها وراحت تمضغها وهي
تضيق عينيها وكأنها تحاصر الطعم الغريب. "مُرّة.. بس فيها
حاجة" قالت ثم وضعت ما تبقى من الحبات في جيب بنطالها
الجينز.

- أه يا بطني. قال أشرف وهو يضع يديه على معدته.
- بصراحة تستاهل يا بابا.. حد ياكل طبق فول وست أقراص
طعمية بعد ما أكل كيلو لحوم من كل الأنواع؟
- الأكل هنا له طعم تاني يا نورا. كل مطعم عنده سر عمره
ألف سنة. التوابل توابل بجد، والناس اللي بتطبخ قلوبها صافية.
إيه رأيك نقوم نهضم بقنبلة من عند الكرنك أو سوبيا من عند
الرحماني؟ قال أشرف ميتسمًا.
- من غير ما أعرف إيه السوبيا وإيه القنبلة دي، لا شكرًا. خد
لك حبة مستكة تريح بطنك وياللا بقى نمشي قبل ماما ما ترجع
وتعمل التراجيديا الرمضانية اللي انت كنت بتقول عليها!

في طريقهم إلى السيارة كانت نورا تستمتع بحيوية المكان وروائح وأصوات الموشحات القادمة من المسجد والموسيقى الشعبية الراقصة الصادرة من المحلات.. فجأة أمسكت نورا يد أبيها وقالت: ميرسي يا بابا.

- على إيه يا حبيبتي. أنا السبب في ضياع قطتك وأدينا لسه مالاقيناهاش.

- لا يا بابا أنا مش زعلانة منك. وبعدين مش غلطتك إن باستيت نزلت من العربية. هي عارفة بتعمل إيه.. هي بتعرف كل حاجة. وأكد اللي عملته دا له حكمة هنعرفها كلنا بعدين. أنا حاسة إنها قريبة مننا قوي دلوقتي. أقرب من الوقت اللي كانت عايشة فيه عندنا في البيت.

كان أشرف يفكر في نفس الشيء وهو يقف بجوار نورا أمام ضريح السيدة. كان يشعر أن باستيت قفزت من السيارة كي يعود هو إلى عالم طفولته وصباه ويواجه نفسه بما كان ويشرح لابنته علاقته بهذا المكان. تذكر اليوم الذي ذهب فيه إلى محل بيع القبط في وسط القاهرة ليشتري قطة لنورا. وقف داخل المحل ونظر إلى عيون كل القبط هناك وحملهم على ذراعيه ومسح بيده على رءوسهم، ولكن قطة واحدة فقط هي التي نظرت إلى عينيه نظرة لم يفهما حتى اليوم. نظرة فيها ألفة وود ومرار. شيء ما جعله يقرر أن يشتري هذه القطة بالتحديد، رغم أنها بدت هزيلة ومريضة. شيء ما جعله يربط مصيره بمصيرها ويعطيها إسمًا فرعونيا. لم يكن لديه وقت كافٍ ليلعبها كما كانت نورا ورشا تفعلان، ولكنه كان حريصًا أن يقربها إليه وينظر إلى عينيها كلما واتته الفرصة. ولكن نفس

النظرة المشحونة من عينيها كانت تجعله لا يقوى على التحديق
بها.

قالوا عن شارع المعز لدين الله الفاطمي إنه لوحة فنية متكاملة بها كل ألوان التاريخ وجروحه. وقالوا إنه نهر يفيض على ضفافه الزمن، يتعاقب عليه الحكام ويرحلون، وتتنازع عليه الممالك وتهلك، لكنه يبقى. قال عنه شاعرٌ إنه الشارع القصيدة، حيث بُني كل بيت فيه على وزن وقافية البيت الذي قبله وتمهيدًا للبيت الذي بعده. هو الشارع الذي شهد مجد القاهرة وذلها، وعاش غناها وجوعها. هو الشارع الذي تتجمع فيه كل روائح مصر العتيقة من جدران وتراب وعطور وتوابل وزجاج وذهب ونحاس ووجوه ترك عليها التاريخ قبلاته وروى وجناتها بدموعه. وإذا كانت السيدة زينب هي أم المصريين فشارع المعز هو أبوهم. يحج إليه الناس وقت الضجر والحزن ووقت الفرح والرضا. شارع لديه قدرة غريبة على مواسة الناس وامتصاص همومهم، لأنه يعلمهم الصمود أمام كل هذا الجريان والرحيل. يتحركون فيه بين جامع ومدرسة وبين سبيل وفناء بيت قديم فيفهمون أسرار القاهرة بلا كلمات. شارعٌ لم يقدر اليأس والخنوع الذي أصاب باقي المدينة أن يتسرب إليه بعد، لأنه ينفذ عن نفسه غبار الهموم أولاً بأول ويقول لساكنيه وزواره: أنا شريان الزمن، أغذيه ويغذي، فلا قاهر فينا ولا مقهور.

مشى كشري بجوار باستيت في شارع المعز وتركها تشم الألوان وتسكب دهشتها على الجدران بلا كلمات، وفي نهاية الشارع سارا بمحاذاة سور أحمر باهت تعلوه منئذنتان قصيرتان شكلهما غريب ولا تشبهان أي منئذنة من مآذن القاهرة الألف. كانت المنئذنتان تشبهان برجى حمام قديمين تملأهما ثقب

كبيرة، وكان الحمام بالفعل يحوم حولهما. دخلا فناء المسجد الواسع حيث بعض الحمام يأكل الحبوب الملقاة فوق الرخام الأبيض. كانت باستيت تراقب نقوش الجدران كأنها متاهات وتحس بضربات الفئوس على كل حجر من حجارتها وهي لا تزال جبلاً شامخاً يطل على القاهرة قبل أن تصبح القاهرة ومن قبل أن تصير مقهورة. كانت عيناها تتجولان بين عشرات الأبواب المحيطة بالفناء تحجبها ستائر زرقاء عن أروقة أربع.. توجهت مع كشري إلى فسقية رخامية حمراء في وسط الفناء، فشربا وجلسا على الرخام البارد. بدأ الزوار يتوافدون على صحن المسجد، مصريون وعرب ومؤمنون شيعة من الهند ودروز مستترون لا يفشون اسم ديانتهم ولا يتناقشون مع أحد عن مكاتة الرجل الذي أمر ببناء هذا المسجد لديهم. ولكن معظم الزوار لم يأتوا من أجل الصلاة وإنما للتأمل في جمال البناء أو للجلوس في صحن المسجد الذي يشع سلاماً غريباً...

- باحس براحة في الجامع دا أكثر من كل الجوامع.. يمكن عشان ميته طعمها غير كل ميه.. ويمكن عشان بتدخله نسمة خير مش عارف جاية منين.. ويمكن عشان الراجل اللي بناه كان راجل غريب.. الراجل دا التاريخ ظلّمه. كان اسمه الحاكم بأمر الله.. المصريين بيحكوا إنه كان حاكم متسلط ومجنون.. ألقوا بيه كل رذيلة ممكن يلصقوها بـحاكم. قالوا إنه كان سفاح وقالوا إنه أمر الناس بالنوم في النهار والعمل في الليل وإنه منع صناعة الأحذية عشان الشعب يمشي حافي، وإنه حرّم أكل الملوخية على العوام لأنها طعام الملوك فقط، وقالوا إنه غير طقوس الإسلام ومنع المسلمين من الحج. ولكن الراجل

كان حكيم وكان متصوف وكان في وجهه نور روحاني. كان مولع بالأدب والعلم منذ طفولته وأسس دار الحكمة وبنى فيها مكتبة عظيمة، وكان دائم القراءة والتأمل. كان يعتزل الناس بالأسابيع عشان يتعبد في جبل المقطم، وبعدين يرجع يتخفى بلباس الشعب ويمشي في الشوارع ويسمع مظالم الناس وكان يبكي إنه لن يستطيع أن يصل لكل مظلوم عشان يرفع عنه الظلم. هو الحاكم الوحيد اللي حرم العبودية في تاريخ مصر..

- طيب ليه حرّم الملوخية والحج؟

- حرّم الحج لمكة عشان المصريين كانوا بيعتبروا الحج صكوك غفران لغسل ذنوبهم وكانوا بيرجعوا بعد الحج يعملوا نفس الذنوب تاني. وحرّم الملوخية لسبب طبي، لأن الملوخية في الوقت دا كانت بتسبب مرض.

- بتوصفه كأنه ملاك.

- أكيد ما كانش ملاك. في قصص بتقول إنه قتل ناس من حاشيته ومن الشعب كثير وكان عنده مشاكل مع المسيحيين وإنه هدم كنايسهم. وطبعًا اتأثر بمرض المصريين إنهم بيحبوا يألّوها حكاهم، وبمرض الحكام اللي ما بيقاوموش التآليه. والاسم اللي أطلقه على نفسه -الحاكم بأمر الله- وضّح إنه لا يرفض الفكرة. بس هو ما كانش شرير ومجنون زي التاريخ ما بيذكره.

- طيب ليه التاريخ شوّهه؟

- مصر دي بلد غريبة. أي دين وأي مذهب بيدخلها بتحضنه وتمصّره. مصر كانت فرعونية، وبعدين جالها اليونانيين بألتهم فجعلها المصريون آلهة مصرية، وبعدين جاءت

المسيحية فاعتنقها المصريون. وبعدين العرب المسلمين جم واحتلوها فصارت مصر مسلمة سنوية لمدة أربع قرون، وبعدين جا الفاطميين واحتلوا مصر، وهم كانوا مسلمين برضو بس شيعة، فأصبح المصريين شيعة، والحاكم بأمر الله كان من الشيعة، وبعد ٢٠٠ سنة جاء غازي جديد لمصر اسمه صلاح الدين الأيوبي قتل الشيعة واضطهد من يتبع مذهبهم فعادت مصر سنوية مرة أخرى، وبدأ الغزاة الجدد في تشويه سيرة الحكام الشيعة.

- أنا أصلا لسه ما فهمتش يعني إيه مسيحي ومسلم عشان أفهم سنة وشيعة. اللي يهمني هو انت شايف الراجل دا ازاي؟
- شايف إنه موحد.

- يعني إيه موحد؟

- هو بالنسبة لي زي أختان، أول حاكم دخّل فكرة التوحيد لمصر. المصريين من البداية كانوا مرتبطين بالطبيعة وكانوا بيعبدوا الشمس والمرأة والقطط. بس كهنة المعابد كانوا بيكسبوا من قرابين الشعب للمعابد، وكانوا بيفرضوا ضرائب كبيرة على الناس. أختان كان شاعر وكان بيكره الظلم، ما كانش عاجبه إن الكهنة هم المسيطرين على الروحانيات، وبيتحكموا في الناس البسيطة. مسك الحكم وهو صبي صغير وقفل معابد آمون رع، ونقل عاصمة ملكه للصحرا وقال إن فيه إله واحد هو الشمس...

- النور...

- أيوه.. المادة الأولى للوجود.

- وبعدين إيه اللي حصل؟

- الملك سمي نفسه أختاتون، يعني "روح الشمس الحية"،
وأسس الديانة الآتونية، أول ديانة للتوحيد في التاريخ.

- التوحيد يعني إله واحد؟

- آه ولأ.. الكلمة دي ليها أكثر من معنى ودلالة. عند اليهود
والمسلمين معناها عبادة إله واحد فقط وعدم الشرك به. عند
المسيحيين معناها اتحاد الأب والابن والروح القدس في كيان
واحد، عند الديانات الشرقية معناها وحدة الوجود. يعني الله
والطبيعة وكل الكائنات شيء واحد، وعند الدروز معناها
التوحد مع ذات الكون...

- طيب فين الشبه بين الحاكم وأختاتون؟

- الاتنين ثوار.. والاتنين أصوليين متعصبين، والاتنين كانوا
عايزين يحققوا العدل المطلق بس فشلوا.. الاتنين رفضوا
الطقوس المكررة اللي المؤمنين بيأدوها بدون وعي وبدون
روحانيات. واحد منهم ابتدع التوحيد والثاني أسس ديانة اسمها
التوحيد. في يوم الحاكم بأمر الله أخذ حماره وطلع جبل المقطم.
الجبل اللي شُفنا القاهرة من فوقه.. بس الحاكم ما نزلش تاني
وما حدش لقي جثته لحد النهاردة.. بيقلوا إنه صعد للسماء
حيًا، وإنه سيعود في نهاية الزمان لإنقاذ البشر...

- غريبة حكاية الجبل دا اللي الناس دايمًا بيخفتوا فيه!

- فكرة المنقذ الذي يأتي ثم يختفي ثم يعود في نهاية الزمان
موجودة في ديانات كثيرة. مثلاً عند اليهود اللي بينتظروا عودة
المسيح في آخر الزمان، وعند المسيحيين اللي بيقلوا إن
المسيح جا واتصلب ومات وبعدين عاد للحياة وبعدين اختفى،
وعند المسلمين اللي منتظرين عودة المهدي. بعد الحاكم ما مات

المصريين أسسوا ديانة جديدة سموها التوحيد وبيوصوفوا الحاكم بأمر الله إنه إله. المؤمنون بالديانة دي بيسموا نفسهم الموحدين بس المصريون بيقولوا عليهم الدرؤز. الدرؤز بيؤمنوا إن الحاكم بأمر الله هو مش حاكم. بيعتقدوا إنه كان تجلي للذات العليا على الأرض بصورة إنسان. والحاكم بأمر الله كان شايف إن وصايا الأديان السماوية ما بتساعدش الإنسان على الرجوع إلى أصله أو الانعتاق.

- ايه هو الانعتاق؟

- حرية الإنسان من الجسد والفكر عشان يتوحد مع ذات الله العليا ويرجع لأصله في عالم الأرواح.

- تقتكر الذات العليا اللي بتتكلم عنها أو الله عادل؟ إزاي فيه ناس بتعرف إن التوحيد هو طريق الخلاص والانعتاق وناس كتير ماتعرفش.

- التوحيد مش ديانة معينة. هي فكرة موجودة من آلاف السنين وما فيش ديانة خالية منها.

- يعني كل الأديان بتدعي للتوحيد؟

- أيوه. الفكرة الأساسية لمعظم الديانات هي محاولة تخلص البشر من معاناتهم ووضعهم على طريق الرجوع إلى الله، بس رجال الدين بيشاوروا للناس على الباب وبعدين يقطعوا عليهم الطريق. حتى رجال الدين الدرزي بيعملوا كذا. الموحدين الحقيقيين فقط هو اللي يقدر يمسخ أول الخيط من الكتاب المقدس لأي ديانة ويمشي وراه عشان يوصل للحقيقة بمساعدة قلبه. المتصوفين مثلاً وإخوان الصفا والروحانيين من الديانات الثانية موحدين، أخذوا الخيط من الإسلام السني أو الشيعي أو

المسيحي أو من الديانة البوذية أو الهندوسية وكملوا مع قلوبهم وأرواحهم.

- واللي بيتولد أعمى أو أطرش؟ يقرأ ازاي كتب الأديان المقدسة عشان يعرف الحقيقة أو يسمع ازاي عشان نحكي له؟
فين العدل؟

- فاكرة الحيوانات العديدة اللي اتكلمنا عنها واحنا عند قبر أم كلثوم؟

- طبعاً فاكرة. أنا ما بانساش حرف من كلامك.

- تمام. فيه موحدين كثير بيؤمنوا بتناسخ الأرواح وبيقولوا عليه تقمص. يعني نفس الروح بتتولد في جسد تاني أو قميص تاني وبتأخذ معاها المعرفة اللي حصلتها والإخفاقات من حياة لحياة. احنا كقطط عارفين دا ومش محتاجين كتب تدلنا عليه. عشان كدا بنتحمل آلام كثير من غير ما نشتكى. الموحدين كمان ما بيعتبروش الإعاقات عقاب بل فرص. ما بيشوفوش المرض ابتلاء بل هدية من الله عشان الناس يصلحوا أنفسهم ويرجعوا إلى طريق الخلاص. لو الطريق إلى الله مكتوب في الكتب المقدسة بس، يبقى فعلاً دا مش عدل، لأن اللي ما بيعرفش يقرأ واللي ما بيشوفش مش هيوصل، لكن في التوحيد الإنسان نفسه هو الكتاب المقدس وحيواته المتكررة وخبراته فيها هي فصول الكتاب. ولازم الإنسان يقرأ كل الفصول عشان يفهم رسالة الكتاب. ثم إن فين العدالة الإلهية لما يخلق حد مشوه أو معاق أو طفل يموت يوم ميلاده وتبقى دي هي حياتهم الوحيدة؟ دا يبقى تناقض مع صورة الإله الرحيم ومع مبدأ تكافؤ الفرص في الانعتاق. لكن لما نفهم إن المعاق ممكن في حياته القادمة يكون

ملك أو طبيب ناجح، والجزار ممكن يبقى بقرة ويدوق آلام
الدبح، والرضيع اللي مات ممكن يعيش في حياته الجاية ١٠٠
سنة، يبقى الإعاقة والمرض وحتى الجريمة والموت يبقوا
مجرد جزء من حياة الإنسان عشان يتعلم شيء لحياته القادمة.
ولما يتعلم كفاية من كل حيواته روحه بتتعتق وتترجع لأصلها.
لنور الله الأول.

- تفتكر من هنا جه حنين البشر للماضي؟ من ذاكرتهم القاصرة
عن إدراك انفصالهم عن ذات الله؟

- أيوه فكرهم المحدود بيخليهم يرجعوا للماضي القريب. بس
للأسف الماضي اللي بيحنوا له بعيد أوي وهم بقالهم عصور
بينجرفوا عن أصلهم. والمأساة الكبيرة إنهم مش عايزين
يصدقوا الحنين دا ولا بيعترفوا بيه. بيشغلوا نفسهم بأحلام
وصراعات وعلاقات زيفة عشان يلهوا نفسهم. صاروا قاسيين
أوي ونسيوا إنهم كلهم من أصل واحد. وإن فيه حاجة من
الأصل دا لسه جواهرهم. صاروا يحكموا على بعض ونسيوا إنهم
كلهم مبتلين بالانفصال عن الله وإلا ما كانوا هنا بالأجسام
الفانية دي اللي بتتألم وتخاف وتموت وتتعتق. صاروا قلقانيين
ومفيش حاجة تديهم سلام وهدوء. صاروا تايهين وفيهم أوجاع
مش عارفين مصدرها وعايزين حاجات مش عارفين اسمها...
صاروا جشعين عايزين يمتلكوا كل حاجة على أمل إن حاجة
واحدة من الحاجات دي تخليهم يحسوا بشيء من السلام أو
السعادة.

- طريق التوحيد دا باين عليه صعب أوي.

- هو مش صعب ع الأرواح القديمة اللي جايبة معاها معرفة من الحيوانات السابقة.

- مش كل الأرواح قديمة؟

- كل الأرواح اتولدت وماتت كثير بس الروح القديمة هي اللي بتيجي حاملة معرفة من حيواتها السابقة. هي الروح اللي شايلة جواها قيس من النور الأول وعندها وعي بالنور اللي جواها. الأرواح اللي بتحب هي الأرواح اللي بتتعرف على النور دا عند بعضها. بس فيه أرواح ما بتتطورش وما بترتقيش وما بتحبش وبتفضل تدور في نفس الدائرة المظلمة. هو دا بقى اللي اسمه: العدم، أو اللي البشر بيسموه: الجحيم.

- الروح ما بتفناش؟

- لا طبعًا الروح إما بترجع لأصلها وبتتحد مع روح الله حيث السلام الأبدي، أو تفضل تشقى وتتولد وتموت. ومع كل حياة فيه فرص انعناق واختبارات وإخفاقات وبالتالي حيوات أصعب أو أيسر. مفيش روح بتغادر العالم المادي وتتحرق وهي تواقفة لشيء فيه أو عندها أزمة مع شيء فيه. لازم الروح تعرف الحب الخالص وتخلق سلام تام مع نفسها ومع العالم حتى لا تعود مرة أخرى. وهو دا بقى اللي اسمه: الجنة.

كان أشرف يجلس على كرسيه مغمض العينين واضعاً يده اليسرى خلف رأسه ورجلاه تتمددان فوق المكتب. كان يقبض بيده اليمنى على حجر صغير ومستدير، ويعد بصوت خافت ٤ .. ٥ .. ٦ .. ٧ .. ٨ .. ٩ .. ١٠ ... ثم يعيد العد من البداية ١ .. ٢ .. ٣ .. حتى يصل إلى عشرة فيبدأ من جديد. وفي كل مرة يصل إلى ٧ كان صوته يعلو قليلاً ثم تنفرج شفتاه بابتسامة تزداد مع ثمانية وتصل ذروتها في ضحكة طويلة مع العشرة، ثم يعاود العد من البداية.. دخلت نورا إلى غرفة المكتب، وراحت تتأمل وجهه وشعرت بارتياح شديد وهي ترى ابتسامة أبيها وتسمع ضحكته. وبعد مرات عديدة من العد والضحك فتح أشرف عينيه فرأى نورا تراقبه وعلى وجهها ابتهاج وفضول. فاعتدل في جلسته وسألها الجلوس. سألته نورا إذا كان بخير، فأجابها: أنا كويس جداً.

- معلش يا بابا أنا مش عايزة أبقى متطفلة، بس حضرتك كنت بتعد إيه؟

زفر أشرف زفرة طويلة ونظر إلى نورا كأنه ينظر خلالها إلى ماض بعيد.

- دي حكاية طويلة قوي يا نورا. من حوالي أربعين سنة كنت لسه طفل صغير. بابا كان تاجر خضار وفاكهة، وكنا كل يوم الصبح بدري ننقل البضاعة من الأقفال الكبيرة اللي جاية من الفلاحين لعلب كرتون صغيرة للعرض في المحل. وكان بابا بيدي لكل واحد فينا مهمة. أنا كانت مهمتي الطماطم، وماما كانت بترص الجوافة وأختي نجوى كانت متعهدة الكوسة. بابا كان بيطلب إننا نحط في كل علبة ٥٠ حنة من الخضار أو

الفاكهة. مش عارف ليه ٥٠ بالذات، بس هو كان مصمم على كدا. عمتي توحيدة الله يرحمها كانت عايشة معنا في نفس البيت.. كانت ظروفها خاصة شوية. كانت... مش قادر أنطق الكلمة.. كانوا بيقلوا عليها مجنونة أو معاقة ذهنيًا، وبعضهم كان بيقول مجذوبة. بس بالنسبة لي هي كانت إنسانة جميلة بس مختلفة مش أكثر، وكانت مبهجة جدًا. كان عندها ٥٥ سنة وطبعًا ما كانتش متجوزة، وكانت ما بتعرفش تعد غير لحد عشرة بس. بابا كان مديها مهمة أقفاص الليمون. فكانت تعد عشر ليمونات وتحطهم على جنب وبعدين تعد عشرة كمان وتركنهم، لحد ما تعمل خمس أكوام كل واحد بعشرة وبعدين تحطهم في العلبه الكرتون. وكانت كل مرة توصل لرقم سبعة وهي بتعد الليمون كانت تفرح إنها قربت توصل لعشرة، وكانت لما تنطق كلمة عشرة كانت بتوصل لحالة من الفرح محدش في البيت عمره وصلها. كانت بتضحك من قلبها ضحكة بتجلجل الشارع كله، وبعدين تبدأ تعد من تاني. كان ممكن تكرر نفس الشيء لمدة ساعات ومع ذلك كانت بتفرح وتضحك كل مرة تقرب من العشرة... كانت مختلفة في كل شيء. كنا لسه جايبين تليفزيون ملون جديد وكنا نقعد كلنا نتفرج عليه، هي كانت بتقعد على كرسي صغير وضهرها للتليفزيون وكانت تلف راسها وتتفرج على المسلسل أو الفيلم، في وضع متعب جدًا لرقبتها. في يوم نجوى أختي راحت لها وقالت لها "انتِ تاعبة نفسك ليه بس يا عمتي؟" وعدلت لها الكرسي، ففرحت جدًا وصقفت بإيديها جامد انها دالوقتي بتشوف كويس، وكان كل مشهد في الفيلم ببسبب لها فرحة مزدوجة. ومع ذلك تاني يوم

إدت ضرها للتليفزيون تاني وكانت بتتفرج برضو ببهجة غريبة ورقبتها معوجة. كانت عيونها شكلها مختلف عننا كنا، كان لونها رمادي. ماما كانت بتقول إن عينها خفيفة عشان عقلها خفيف، بس بالنسبة لي عيونها كانت زي السحاب قبل المطر بثواني. كان فيهم أمل وخير. التليفزيون ما كانش هوايتها المفضلة، كانت بتحب تلعب الحجلة. تعرفي الحجلة؟

- لا.. بتتلعب ازاي الحجلة دي؟

- آه طبعًا.. اللعب دي اتنتست في زمن الآي فون والآي باد. دي يا ستي لعبة الأطفال كانوا بيلعبوها في الحارة. كانوا بيعملوا عشر مكعبات وكانوا بيرموا حته حجر لأي مكعب ليهم وبعدين يحاولوا يوصلوا للمكعب دا وهم واقفين على رجل واحدة. وبعدين يبدأوا يزقوا الحجر برجل واحدة لحد ما يدخلوه المربع العاشر. لو كانت اللعبة دي ضمن الألعاب الأولمبية أكيد عمتي كانت هتاخذ الميدالية الذهبية بدون منافس. كان توازنها وتحكمها في رجلها وفي سرعة الحجر خرافي، كأنها كانت بتحسب كل زقة بالمسطرة. بس هي ما كانتش بتلعب مع حد. كانت بتلعب مع نفسها. وكل مرة تزق الحجر للمربع العاشر كانت بتدخل في حالة نشوة وكان المربع العاشر دا هو الجنة.

- هو دا الحجر اللي في إيدك؟

فرك أشرف الحجر بحنان بين أصابعه وقال:

- أبوه.. عمتي جابته من جبل المقطم وشكلته بإيدها وكانت دايماً شايلاه معاها وكأنه جوهرة ورتتها عن جدودها وجدود جدودها. كانت كل شوية تطلعه من جيب جليبتها وتبص عليه كأنها بتقرا كتاب أسرار الكون. كل اللي حواليتها كانوا لما

يشوفوها بتلعب الجحلة أو بتأمل الحجر كانوا يقولوا مسكينة
مش عارفة بتعمل إيه، أنا على العكس كنت باقى سعيد جداً لما
أشوف حاجات بسيطة بتسعدنا. ماتت وأنا في الثانوية العامة،
نامت وما صحيتش. كل اللي في البيت واللي في الحارة كانوا
بيدعوا لها "الله يرحمها" بس أنا كنت شايف إن هي رحمة ربنا
نفسها اللي كانت عايشة وسطينا ومحدث حس بيها. كانت حنة
من الجنة عايشة في الحارة وبعدين رجعت الجنة وسابت لنا
منها حجر واحد بس. الحجر دا بالنسبة لي كان كنز. كل ما
أبص عليه أسأل نفسي، ليه ما باشوفش فيه اللي كانت بتشوفه،
وليه بنحس بالشفقة تجاه ست بتفرح بلعبة الجحلة وهي عندها
٥٥ سنة وإحنا المفروض نحس بالشفقة تجاه نفسنا عشان كبرنا
وبطلنا نفرح بلعبة أو بأي حاجة.

- بس أعتقد إن حضرتك قريب قوي من الجنة يا بابا لأنك لسه
قريب من عمته توحيدة.

رأت نورا ابتسامة مختلفة في عيني أبيها، ابتسامة نوستالجيا
مثل شريط فيلم سينمائي قديم يدور بشكل حلزوني.

- هو احنا ليه بنحن للماضي يا بابا؟ ماما دايمًا بتقول زمان كل
شيء كان أحسن، و حضرتك كمان كل ما تتكلم عن السيدة
زينب عيونك بترغغ بالدموع. مش المفروض اننا كل ما
نعيش أكثر نستمتع بالحاضر أكثر؟ ليه بنبص لورا؟

- إجابة السؤال دا صعبة قوي يا نورا وكبيرة عليك. محتاج
كتاب فلسفة كامل عشان أشرح لك، وأنا دكتور مش فيلسوف.

- أنا مش صغيرة يا بابا، وانت ياما شرحت لي حاجات صعبة
وفهمتها.

- أنا اللي صغير قدامك والله يا حبيبتي. يمكن الإجابة كبيرة
عليا أنا، لأن تمنها كبير. الحنين للماضي هو ضريبة التفكير.
- تقصد لو نسينا الماضي وما فكرناش فيه يكون أحسن؟
- مش بالظبط. إحنا وإحنا أطفال ما بيقاش عندنا تصورات
للسعادة ولا شروط ليها. بنفرح بكل شيء جميل وبنشوف
الجمال في كل شيء، في السجادة، في النجفة، أو في أي لعبة
بسيطة. لو أي حد ابتسم لنا بنفرح من غير ما نعرف مين دا
وجنسه إيه وعازب مننا إيه. وانتِ صغيرة كنا بنشغل لك حلقات
توم وجيري ونعيد لك نفس الحلقة في اليوم أكثر من عشر
مرات، وكنت كل مرة بتضحكي عند نفس المشهد وكنت
بتندهشي. نفس الشيء كان بيحصل مع قطنك، كانت بتفضل
تتفرج على الطيور من الشباك أو تلعب بالطائر الأزرق بتاعها
طول اليوم وعمرها ما ملت. القطط والأطفال والمجانين، اللي
إحنا فاكرينهم مجانين يعني، بيفرحوا بأبسط الأشياء عشان ما
بيفكروش وما بيحللوش. لما بنكبر بيبتدوا أهالينا وجيرانا
والمدرسين في المدرسة والشيوخ في الجوامع يعلمونا المنطق
وشروط السعادة: اعمل كذا عشان تاخذ كذا، وما تعملش كذا
عشان ما يحصلكش كذا. السعادة بتبقى مشروع بعيد مؤجل.
اسمع كلام أبوك وامك عشان يرضوا عنك، ذاكر عشان تنجح.
صلي عشان تخش الجنة، اشتغل عشان تكسب فلوس وتتجوز.
اتجوز عشان تكون أسرة وتجيّب ولاد. اشتغل أكثر عشان تبني
بيت ملك وعشان تأمن مستقبل أولادك وهكذا. بنخلي كل حاجة
في حياتنا تمر على مصفاة التفكير والمنطق، والمصفا دي ما
بترحمش، ما بتسيبش لحظة فرح في حالها. مهما كسبنا، الفكر

بيخاينا نخاف نخسر. مهما حبيننا بنخاف اللي بيحبونا يسيبونا.
كل ما نخسر نندم، وكل غلطة نعملها نحس بالذنب عليها.
بالنسبة للكبار إحنا كدا بنبقى ناجحين وعندنا إحساس
بالمسؤولية. أما بقى من وجهة نظر القطط والأطفال والمجانين
إحنا ما زلنا أطفال، بس أطفال ضايعين.

- عشان كدا بنحن لطفولتنا؟

- بنحن للماضي اللي كنا فيه أبرياء وأنقياء، بنرجع له عشان
ندور على نفسنا قبل ما يلوثنا التفكير والخوف وقبل ما نأذي
حد ولا حد يأذينا. قبل ما نخاف أو نحس بالذنب، وقبل ما
نعرف مفهوم الندم. لو كنا فضلنا ملتصقين بأصلنا ما كناش
تهنا، ولو ما تهناش ما كناش حنيننا لأصلنا. عشان كدا قلت لك:
الحنين هو ضريبة التفكير.

- تفكر لو رجعت لطفولتك هتعمل إيه يا بابا؟

- بيتهياً لي برضه هيبقى عندي حنين لزمان أبعد من الطفولة.
هاتمنى أرجع لبطن أمي وحالة الرضا والسلام جواه. هيبقى
عندي حنين للمكان اللي بدأ فيه كل شيء. لحالة الالتصاق التام
بإنسان بيحبك من غير شروط وبتهيئه وبتنقي بيه من غير
سبب. إنسان وجودك كله متوقف عليه، وممكن يضحي بنفسه
عشان انت تعيشي.

- تفكر باستيت نطت من العربية عشان كانت بتحن للماضي
بتاعها؟ قالت نورا وقد داهمتها الدموع.

- ممكن جداً يا حبيبتي.

قال أشرف وهو يعانق ابنته.

تجول كشري وباستيت في أزقة خان الخليلي بين دكاكين التوابل والبازارات. أغمض كشري عينيه وقال لباستيت: "شمّي البخور. شمّي تاريخ مصر كله في سحابة دخان واحدة!". مرة أخرى تعجبت باستيت كيف أنها تعرف هذا الخليط من الروائح جيداً، وكأنها تحمل تاريخ مصر كله في أنفها. مرّاً على مقهى قديم فقال كشري: "نجيب محفوظ كان يقعد هنا يكتب قصصه ورواياته، وكتب رواية كاملة عن السوق دا. وكان مرة قاعد يفكر في قصة جديدة وما كانش عارف يبدأها ازاي، وفجأة شاف قط أسود بيتنقل بين موائد المقهى وينزل يتمسح بسيقان الضيوف، فبدأ محفوظ قصته بنفس المشهد وسمى القصة "خمارة القط الأسود"... قصة حلوة.. بس أنا ما باحبش لما البني آدميين بيكتبوا عن القطط ويخلوهم مجرد كومبارس في قصصهم.. حتى لما بيكتبوا كل القصة عن القطط، ما بيكتبوش حقيقة القطط وإنما بيكتبوا خيالاتهم عنهم وتوقعاتهم منهم، فيخلوا القط إما فيلسوف أو ظابط مباحث شاطر بيكتشف القاتل بحاسة الشم بتاعته. بعضهم بيخلي القط طيب ساحر بيعالج كل الأمراض أو معلم بارع. توقفت باستيت فجأة عن السير وراحت تنظر لتمثال كبير من الجرانيت الأسود لقطّة سوداء تجلس القرفصاء وقد كست عنقها قلادة من الأحجار الكريمة الملونة يتوسطها حجر أزرق كبير على هيئة عين حورس، بينما استدارت الشمس المقدسة في وسط جبينها.

- مين دي؟ قالت باستيت وهي مذهولة.

- دي باستيت الكبرى.. أمنا كلنا.

وقفت باستيت الصغرى ترتجف أمام التمثال وهي لا تقوى على
إزاحة عينيها عنه. كيف لقطعة من الجرانيت الأسود أن تحمل
كل هذا الجمال والكبرياء! كيف لكائن حي أن يقف متواضعًا
وخاشعًا أمام قطعة حجر! ترك كشري باستيت تتأمل التمثال
وجلس بجوارها لأكثر من ساعة دون كلام. انتهت باستيت أن
وقتًا كبيرًا مرَّ فالتفتت ووجدت كشري يراقبها بكل خشوع
ووجد.

- كشري انت ليه سكت؟

- حسيت إنك بدأت تتذكري حياة ثانية من حيواتك. فسيبتك مع
نفسك.

- أنا دايماً مع نفسي وأنا معاك. أنا شفت أطياف كثيرة من
الماضي وحسيت بفيض من المشاعر بس لسه مش قادرة أتذكر
مواقف وتفاصيل من الماضي.

- كل شيء بأوان. أنا زيك فيه حاجات بافتكرها وحاجات كثيرة
لسه ناسيها. لسه المشوار طويل.

كانت القاهرة دائماً تتلون بلون من يحتلوننا ولكنها مع ذلك كانت قادرة أن تبقى فريدة ومتفردة، حتى في قدرتها على التكيف أو في رفضها له. حاول من بنوا القاهرة الخديوية أن يجعلوها نسخة تضاهي باريس جمالاً ورونقاً، لكنهم فشلوا فشلاً مروعاً. ليس لأن باريس أجمل، ولكن لأن من يضع القاهرة في مقارنة مع أي مدينة يفشل كمن يقارن عطر الـ"كيفي" العتيق بعطر شانيل رقم ٥، أو كمن يقارن بيت السحيمي بقصر فرساي. قد يكون المهندس الفرنسي "أوسمان" الذي خطط باريس هو نفسه الذي خطط القاهرة. قد يكون ميدان الأوبرا في القاهرة يحاكي ميدان الأوبرا في باريس وقد يحاكي ميدان التحرير ميدان الجمهورية في العاصمة الفرنسية، وقد تكون واجهات بنايات ميدان طلعت حرب لا تختلف كثيراً عن واجهات بنايات منطقة "بورت دي أورليون" وقد تكون قصور عابدين والقبة والجوهرة قد بنيت على نفس طراز القصور الفرنسية. لكن القاهرة تبقى عصية على التخطيط والتنظيم. قد تقبل الشكل أحياناً ولكنها ترفض دوماً أي مضمون غريب يُفرض عليها. فهي لم توجد لتحقيق أحلام الحكام والأمراء، بل لتفرغ ذاتها من كل ما هو ليس منها لتملأها من جديد بذاتها هي.

هي تحترف خلط الجمال بالألم والخلود بالعدم. إذا كان شارع المعز يحتضن المصريين ويواسيهم، فإن شوارع وسط البلد تحيرهم وقد تذلمهم أو تلفظهم بعيداً. إن جنتها زائراً فلك الدهشة والفكرة وربما الحسرة، لأنها ستشعرك أنك غريب منذ أن تطأ قدمك أول رصيف فيها. لن تبخل عليك بالزحام والعرق

والخوف من الانسحاق تحت الأقدام أو من أن ترجع إلى حيث أتيت وقد سُرقت نقودك. أما إذا كنت من سكان وسط البلد الأصليين فأنت أمير من الأمراء أو باشا من الباشوات حتى لو كنت فقيراً. فمصدر إمارتك سيكون أنك تعرف خبايا وسط البلد وكنوزها، ستعرف تاريخ البارات والمطاعم والمقاهي. ستعرف تاريخ عائلة "جروبي" الإيطالية وعلاقتهم بالسياسة في مصر والعالم. ستعرف شارع محمد علي وقصص الرافصات والآلاتية الذين سكنوه. ستعرف الناشر الثائر والناشر الفاخر والناشر النصاب، وستعرف سور الأزبكية والأرصفة التي لا تعترف بأي دار نشر. ستعرف الروائي الحزين الذي يجلس وحده على قهوة البستان، وستعرف الروائي البدوي الضحوك الذي لا يكل من تكرار عبارة "الإنسان قادر على كل شيء". ستعرف الجرسون العجوز في مطعم قفلة الذي لا يطيق أن تطلب منه طلباً إضافياً. ستعرف المغني الشاب الذي صار نجماً والمغني العجوز الذي لا يعرفه سوى سكان وسط البلد الأصليين، والذي يحلم أن يغني مرة بدار الأوبرا ثم يموت بعدها في أحضان غانية. ستجد أناساً لا يطلبون شيئاً من الحياة سوى أن يتركهم الناس في حالهم، وأناساً آخرين متذمرين ومتأففين يظنون أن الحياة مدينة لهم بكل شيء: حب ومال وشهرة ونجاح. ستجد قطعاً كثيرة تتجول بين مقهى الجريون واستوريل وعربية زينب بتاعة الكبدة في الممر الضيق المؤدي لشارع شمبليون. بعد مسيرة شاقة وسط غابة من السيقان والأحذية، توقفت باستنيت فجأة عن السير وراحت تشم شيئاً ما. رائحة ورق

الصحف والكتب المرصوفة على الأرصفة كانت تملأ المكان، لكن لم تكن هذه هي الرائحة التي استوقفتها. كانت رائحة جميلة مألوفة لها. تركت باستيت كشري وعبرت الشارع وحدها لأول مرة، وتوجهت نحو فاترينة زجاجية مقسمة لمكعبات صغيرة. في كل مكعب تجلس قطة صغيرة هزيلة. أعمار القطط تتراوح بين أسبوع وثلاثة أشهر، وكلما زاد عمر القطة قل ثمنها المثبت أسفل المكعب. وقفت باستيت تراقب قطة نحيفة جدا في المكعب الأسفل كانت تدير ظهرها للشارع بلامبالاة من لا يريد من الحياة شيئا. أطالت باستيت النظر إلى ظهرها الذي برزت منه عظامها، فاستدارت فجأة ونظرت لباستيت نظرة عميقة طويلة. أغمضت باستيت عينيها وراحت تشم الرائحة العجيبة القادمة من المكان.

لحق كشري بباستيت وراقبها وهي تراقب القطة النحيلة وقال إن أصحاب تلك المحلات يجوعون القطط عن قصد أحيانا ليثيروا شفقة المشتريين. اقتربت باستيت من القطة الجالسة في المكعب الأسفل وهمست لها بكلمات غير مفهومة من لغة منسية. حتى باستيت نفسها لم تفهم الكلمات التي خرجت للتو من بين شفثيها، ولكن القطة المقابلة لها فهمت ما قالته وأغمضت عينيها وفتحتها. وفي نفس اللحظة سحب صاحب المحل القطة من مكعبها وسلمها لطفلة صغيرة جاءت مع أمها لتشتري قطة، لكن الطفلة رفضت القطة فأعادها البائع إلى مكعبها مرة أخرى.

- كشري.. انت شامم الريحه الحلوة اللي طالعة من المحل؟

-
- أيوه.. دي أجمل وأعذب ريحة في الكون كله. القبط بتنادي بعض بالروائح اللي بتطلع من خدودهم.. القبط اللي في المحل بتنادي على أمهاتهم اللي البياعين سرقوهم منهم بالريحة دي.
- ليه دا يحصل للقبط في بلد أهلها كانوا بيعبدوا القبط؟
- عشان مأساة المصريين هي نفس مأساة القبط. الاتنين نسيوا الطريق لأصلهم.
- تفكر امهاتهم بيسمعوهم؟
- نداءاتهم أكيد بتوصل لمكان ما، ولو فضلوا ينادوا وفضل حنينهم صاحي أكيد حيلاقوا طريق العودة لحضن دافي.
- زيي أنا.
- زيك انت.

يصور غرور الإنسان له أنه أقوى المخلوقات، ولكنه في الحقيقة أكثرها ضعفاً وقلة حيلة. الإنسان مبتلى برغبته في التحكم، والتحكم هنا عنوان عريض تندرج تحته جميع تفاصيل حياته وحياة المحيطين به، بل تفاصيل الكون بأسره. في زمن ما كان الإنسان مجرد جزء من الكون والطبيعة وكان يعيش معهما في تناغم وسلام وتواضع، ولكن منذ زمن ليس ببعيد سوّلت للإنسان نفسه أن مهمته هي أن يلهث ليلوي حقيقة الكون ويخضعها لنطاق استيعابه الضيق. فتراه يصاب بالإحباط إذا عجز عن فهم شيء ويلجأ للرفض والمقاومة وكذلك النفور من ذلك الشيء الذي لا يفهمه. وفي محاولاته المستمرة لفهم الكون والحياة والبشر المحيطين به يقوم عقل الإنسان بقص ولصق المعلومات على هواه كي يخرج بقطعة تناسب الثغرة الموجودة في رأسه. إن كان أحدهم يريد برهاناً على شيء ما يختار عقله الأمور التي تعزز هذا البرهان ويسقط كل ما لا يتوافق معه، ويكون من هذه القصاصات سلسلة يلفها حول قدميه ويدافع عنها بشراسة. في رأس كل منا إذاً شريط طويل من المعلومات مختلف عن كل الآخرين. في رأس كل منا حقيقة فريدة كبصمة الإصبع. قد نحتفل بلقاء أشخاص يشبهوننا في التشكيلة التي صنعوها في عقولهم حول حقيقة الأشياء، ولكن مع الوقت والغوص في التفاصيل تبدأ الفروق بالظهور ويبدأ الخوف يتسرب ومعه الشراسة في محاولة إثبات أن رؤيته للأمور هي الحقيقة الوحيدة. في كل مرة يواجه الإنسان بوجهة نظر لا تطابق شريط حقيقة الأمور في رأسه يصاب بالذعر، وما أكثر هذه المواجهات، وما أتعس هؤلاء البشر.

كانت رشا مرتاحة للصورة التي كونتها في رأسها عن قيمة ما تقدمه لعائلتها ومقتنعة بأن وصفتها للسعادة هي الخلطة المضمونة التي لا خلل بها ولا ريب. ولكن لم يكن يلزمها سوى القليل من الصدق مع نفسها حتى تلاحظ أن "الحقيقة" التي كونتها هي عنهم لا تشبه الواقع ولا حتى تشبههم هم. كان الخوف والواجب والاستكانة لسلسلة سير الأمور هم العناوين العريضة التي تشد أواصر زواجها. هذا ما يجعل معظم العلاقات تدوم. الخوف من التغيير في ظل حقائقنا الداخلية الواهية يجعلنا نقف مكاننا كمن يحمل عالمه فوق رأسه على شكل جرّة خزفية وهو مكتوف اليدين، فإذا تحرك سقط العالم وتهشم. وكلما زاد الإنسان هشاشة داخل نفسه زاد أيضًا تعلّقه المريض بمن يحب وزاد خوفه من شريط المعلومات في رأس من حوله. ومن هنا جاء التناقض الفطيع الذي يعيشه البشر. يريدون كل شيء من العالم: حب وحرية وسعادة ونجاح، ولكنهم يكتلون أنفسهم بسلاسل الخوف فلا يتحركون إلا في حلقة ضيقة مفرغة. ولكن من يملك الحقيقة لا يعرف الخوف الطريق إلى قلبه. ومن يطمح للفهم لا يرضى بتلفيق حقائق وهمية ليسد جوعه للمعرفة. ومن يفهم أن قدرتنا على الحب هي غاية الغايات لن ينحدر بهذا الحب إلى التوسل والاستجداء ولن يقحمه في جرّة صغيرة مزركشة ولن يقنّده بالسلاسل والأغلال التي يزين بها البشر أعناقهم. كيف يحمي الإنسان نفسه من قدرته الجبارة على تدمير نفسه؟ من يرحمه من فخ حب السيطرة والامتلاك الذي يسقط هو فيه قبل أن يجر معه من يريد التحكم بهم؟

جلست رشا تحمق في شاشة هاتف أشرف الذكي الذي نسيه على منضدة السفرة ودخل لينام. منذ أن رأت بالصدفة إشعارًا برسالة جديدة له من امرأة اسمها "ميريت" وهي كالجالس على خلية نحل. يمنعها كبرياؤها أن توقفه لتسأله من هذه المرأة، ولكن غيرتها جعلتها لا تستطيع التفاوض عن الموضوع. صوت المنطق يقول لها إنه طبيب تجميل وإن معظم زبائنه نساء فمن الطبيعي أن يتواصل معهن ويقدم لهن المشورة. ولكن صوت نفس المنطق كان يقول لها إنه لم يقبلها منذ شهر ولم يعاشرها منذ زمن أبعد، وإنه ربما يمر بأزمة منتصف العمر ويحتاج إلى مغامرات جديدة تشعره برجولته. راحت تتخيل ميريت هذه وعيونها الواسعة الغامقة وشعرها الطويل وغمازات خديها وصوتها الهادئ الرخيم الذي ينصت إليه أشرف باستمتاع. رأتهما معًا بين الحدائق وفي حمام السباحة وفي السرير. قامت تدور في الغرفة وقد تملكت حمى الغيرة منها إلى درجة لم تعد تطيقها. تسللت إلى غرفة النوم وهي تحمل الهاتف وجلست إلى جوار أشرف لتتأكد أنه غارق في النوم. سحبت يده اليميني بحذر وكأنها تشبك يدها في يده ولكنه سحب يده منها بتلقائية. أعادت الكرة مرة أخرى بعد قليل وأمسكت بإصبع الإبهام وضغطت به على زر فتح الشاشة، فانفتحت. تسللت مرة أخرى إلى غرفة المعيشة وراحت تقلب في رسائل أشرف على فيسبوك وواتس أب. واسعة العينين وفاغرة الفم كانت تتجول بين الرسائل وهي تكتم أنفاسها وغيظها.

"انت أجمل دكتور في الدنيا".
"ميرسي يا قمر.. انت اللي مفيش في جمالك حد".

"مفيش في جمالها حد؟"، حاضر يا أشرف، قالت رشا وقد تعالت أنفاسها وزادت وتيرة بحثها عن دليل أقوى على خيانتها لها. ولكنها لم تجد سوى عبارات شبيهة أو أقل حدة. لم تستشف من الرسائل إذا كان يلتقي بها خارج نطاق علاقته بها كطبيب أم لا. بحثت في رسالة من وإلى نساء أخريات فلم تجد شيئاً، فتوجهت إلى رسائله إلى أخيه:

"والله يا عادل أنا قرفت. ما بقينش حاسس اني في بيتي".
"اصبر يا أشرف. رشا صحيح عصبية بس في النهاية قلبها أبيض. وبعدين لو مش عشان خاطرها يبقى عشان خاطر نورا. مسكينة حتتكسر لو انفصلتوا في التوقيت دا. البنات في مرحلة المراهقة محتاجة أمها وابوها يبقوا جنبها".

"يا نهار اسود يا ابن الفكهاني. انت بتفكر تطلقني؟"، جحظت عينا رشا أكثر وقامت تتجول بين أركان الغرفة من جديد. جلست القرفصاء على الكنبه تنظر إلى لا شيء وتحاول أن تتحكم في أنفاسها. ثم انتفضت مرة أخرى من جلستها وأمسكت بصندوق حديدي مغلق وألقته في اتجاه المرأة الأثرية في الجانب الآخر من الغرفة وهي تصرخ. انتفض أشرف من النوم وجاء غارقاً في عرقه إلى غرفة المعيشة فوجد رشا تحمق في زجاج المرأة المهشم بنظرة سيكوباتية مخيفة.
- فيه إيه يا رشا؟ ما لك؟

-
- ما لي؟ ما لك انت يا دكتور يا حبيب؟
قالت دون الالتفات إليه.
- انت بتقولي إيه يا رشا؟
حاول أشرف الاقتراب منها والإمساك بكتفيها فنهرته ونفضت يديه عنها بغضب.
- دي آخرتها يا أشرف؟ بعد العشرة دي كلها بتخونني؟
- أخونك إيه يا رشا؟ انت بتتكلمي عن إيه بالضبط؟
- عن حبيبتيك "ميريت" اللي مفيش أجمل منها حد.
- ميريت؟
- أيوه بقى استهبل!
- أستهبل إيه بس؟ ميريت دي زبونتي ومفيش بيني وبينها غير الشغل.
التفتت رشا وقالت بغضب:
- يعني كل زباينك بيقلوا لك انت أجمل دكتور في الدنيا وانت ترد تقول لهم مفيش أجمل منكم حد؟ وكل يوم الصبح بيصبحوا عليك، وقبل ما تنام يتمنوا لك سويت دريمز؟
- استني! انتِ عرفتِ كل دا ازاي؟ انتِ عملتي هاكينج للتليفون بتاعي؟
- مش مهم عرفت ازاي. المهم إنني عرفت إنك خاين ومنافق.
- أنا برضه اللي منافق يا رشا؟ المنافق هو اللي يتجسس على خصوصيات غيره عشان معندوش ثقة في نفسه.
- اخرس!
- اخرسي انتِ! أنا عمري في حياتي ما خنتك. المجال بتاع شغلي بيطلب مجاملات. الستات اللي بيجولي عندهم عقد نقص

زيك كدا. مش محتاجين بس جراحة تجميل وإنما طبطبة على الإيجو بتاعهم، عشان فارغين.
- أنا كان قلبي حاسس من زمان إن فيه حاجة غلط وانك بتلعب بديلك.

- إحساسك دا هو إحساسك بنفسك يا رشا. الست اللي بتخون جوزها بتكون يا إما هي نفسها بتخونه أو بتفكر تخونه، وخلي الطابق مستور بقي عشان البنت اللي نايمة جوه دي.
- طابق ايه اللي عايز تستره يا أشرف؟
- هاتي موبايك كدا نبص ونعمل مقارنة بيني وبينك ونشوف بنتكلمني مع المخرجين والمنتجين وزمايلك الممثلين الرجالة ازاي؟

ارتبكت رشا قليلاً وقالت:

- انت تقصد ايه بالطبط؟

- أقصد اللي انت فاهماه كويس. أنا وانت عارفين انت بتاخدي معظم أدوارك ازاي رغم المنافسة الشديدة ورغم إنك مش فاتن حمامة يعني.
- نعم؟ هو خدوهم بالصوت واللا ايه؟ انت اللي خاين والدليل معايا.

- وأنا لو عايز دليل ضدك هجيبه بسهولة. مش انت لوحداك اللي شرلوك هولمز يعني. بس الحكاية مش مستاهلة. أنا خلاص ما بقاش يهمني انت بتقابلي مين وتعرفي مين وبتعلمي تشات مع مين.
- يعني ايه يا أشرف؟

- يعني ولا حاجة يا رشا. ولا حاجة. بدل ما انت قاعدة تدعيسي
وتفتشي في أسرار غيرك، فتشي جواك وشوفي مشكلتك إيه
بالظبط. لو دورتي كويس هتكتشي إنني لا أنا ولا علاقتنا هي
المشكلة. خشي نامي جوه وأنا هروح أنام في أوضة الضيوف
فوق!

ذهب كشري مع باستيت لتسلق جبل المقطم من جديد في وضح النهار لعل باستيت تتعرف على الحي الذي تسكن فيه من أعلى، ولكن طريق صلاح سالم كان مزدحمًا للغاية فكان من الصعب عليهما العبور للجانب الآخر. راحت باستيت تراقب جانبي الطريق ثم قالت: "أنا مرّيت من هنا قبل كذا بالعربية". سألتها إذا كانت تتذكر ماذا رأّت من شباك السيارة في طريقها. قالت إنها رأّت قصرًا ذا قباب فضية فوق هضبة ثم رأّت مقابر كثيرة بعد ذلك. استنتج كشري أنها تتحدث عن مسجد محمد علي ومقابر الإمام الشافعي، وأنها بالتالي أتت من ناحية مطار القاهرة وليس من الجزيرة. المشكلة أن صلاح سالم هو الشارع الرئيسي في القاهرة وهو أطول الشوارع، ولا يمكن أن يستنتج أحد في أي حي تسكن باستيت فقط عند معرفة من أي جهة من صلاح سالم أتت. عبرت باستيت الطريق بخفة دون مساعدة كشري وكأنها تفعل ذلك طول عمرها.. رأيا عربية كارو يجرها حمار تحمل الفواكه وتسير باتجاه المطار. اقترحت باستيت أن يستقلا العربية علّها تتعرف في الطريق على بيتها. كان كشري يتمنى أن يصعد معها الهضبة لأنه مثل الصعود إلى سحابة بعيدة هادئة لا يعكر صفوها فيها أحد، ولكنه رضخ لإرادة باستيت التي ربما أرادت العودة لبيتها وحديقتها وطعامها المألوف. جلسا فوق العربية، باستيت تراقب البنايات على جانبي الطريق وكشري يتأمل عيون باستيت والتفاتاتها. تعجبت باستيت أنها بدأت تتذكر حيواتها الأولى منذ زمن الفراعنة لكنها مازالت لا تتذكر تفاصيل الطريق إلى الحي الذي جاءت منه. كانت رائحة المطاط والكربون الأسود المنبعثة من

عجلات السيارات تزكم أنفها وتشعرها بضيق النفس. وكان
انحدار الشارع إلى أسفل يشعرها بشيء من الغثيان.
- انت عندك صغار؟ سألت باستيت كشري دون أن تنظر إليه.
- لا.. مش عايز.

- هل فيه قط ما بيعبش الصغار؟ دا حتى الصيد والولادة هم
أهم خصائص القطط.

- واضح إنك لسه ما تعرفيش حاجات كتيرة عن خصائص
القطط. أنا ما قلتش إني ما باحبش الصغار.. قلت مش عايز
صغار.

- ليه لأ؟ عشان زيادة عدد البشر بتضيق عليكم المكان في
مصر القديمة؟

- لا.. البشر مش هم المشكلة.. بالعكس.. كل ما زاد عدد البشر
زادت الأماكن اللي القطط ممكن تعيش فيها.. والمصريين
بالذات بيحبوا القطط من أيام ما كانوا بيعبدوا باستيت الكبيرة
لحد النهاردة.. مش كل المصريين زي أصحاب المحلات اللي
بتبيع القطط. وكل ما كان المصري فقير كل ما زاد عطفه على
القطط. حتى اللي بياكلوا من صناديق الزبالة بيعسموا لقمتهم مع
القطط.

- طيب فين المشكلة؟

- المشكلة في القطط نفسها. نسيوا إنهم كانوا آلهة وإنهم نبض
الكون. جزء منهم اتعلم الكسل وقعد في بيوت البني آدمين
يسليهم في مقابل وجبة وركن دافي.
- قصدك أنا؟

- أنا مش عارف انتِ عايشة ازاي.. أنا قصدي جزء كبير من القوط.

- انت غضبان ليه يا كشري؟

- وانتِ ليه معندكيش ثقة في نفسك يا باستيت؟

- طيب إهدا وقوللي الجزء الثاني من القوط عايشين ازاي؟

- الجزء الثاني هو الجزء الأكبر.. أهلي وعشيرتي.. عايشين في الشوارع يتسكعوا ويصارعوا بعض عشان قوت يومهم. وياريت الموضوع حرب شوارع عشان الأكل وبس. هوس القوط بالجنس خرب حياتهم.

- إزاي؟

- زمان القوط كانت بتعلم باقي المخلوقات يعني ايه حب، النهارده بيسرحوا في الشوارع ويتعقبوا أي أنثى ويحاولوا يعاشروها سواء بيحبوها أو لأ..

- بس دي غريزة مخلوقة مع القوط.. والجنس مش رذيلة زي البشر ما هم متصورين.

- لا.. في شي غلط.. قوط البيوت اللي زيك بيعيشوا ١٥ سنة، إحنا هنا بنعيش ٤ سنين بس على الأكثر. لأن مع كل مغامرة جنسية بين قوط الشوارع فيه إمكانية كبيرة إن فيروس قاتل بينتقل من الذكر للأنثى أو العكس. وعشان كله بيعاشر كله الفيروس انتشر وبقي صعب السيطرة عليه. نفس الشيء يحصل مع البني آدمين بس البني آدمين ابتدوا يفهموا وابتدوا يحموا أنفسهم. أسوأ شعور إنك تشوفي الموت يقرب منك أو من حد بتحبيه وما يكونش في إيدك شيء تعمله.

لمحت باستيت الحزن يلمع في عيني كشري وسألته:

- انت ليه دايمًا وحيد.. فين أهلك واخواتك؟
- نصهم مات مدهوس على طريق سريع وهو يحاول يدور على حاجة ياكلها. والنص الثاني مات بالفيروس الملعون. أختي الصغيرة كانت أكثر واحدة مسكينة.. كانت زيي في حالها ومش مهتمة بالجنس وكانت بتحاول تتذكر حيواتها السابقة في هدوء. بس العصابة اللي في الحي هجموا عليها في يوم وتناوبوا اغتصابها.. أصابها الفيروس وماتت وهي بتولد...
أخذت باستنيت نفسًا عميقًا وقالت:

- عالم القطط في أي مكان عالم قاسي جدًا.. أنا صحيح أعيش حياة مرفهة بس دفعت لها تمن غالي. بعد أيام من ميلادي أخدوني من أمي وحطوني في محل للبيع. بعد العيلة ما اشترتني أخدوني لطبيب بيطري وشالوا مني المبايض والرحم. شفت في نفس اليوم قط ذكر بيعملوا له عملية إخصاء. بصيت في عينه وشفت رعب وانكسار ما شفتوش في عيون قط ثاني. البشر مش عايزينا نكثر عشان خايفين يفقدوا السيطرة علينا.. عشان كدا بيثيلوا مننا الحياة عشان نبقى طيعين ومسالمين ونسلي حياتهم الفارغة.

- فاكرة حسيت بياه لما استأصلوا رحمك؟
- اتكسرت طبعًا... إن يحصل لجسمي كدا من غير ما حد يشاورني وإنني اكون ضعيفة ما اقدرش أحمي نفسي شعور خلاني أفقد ثقتي في العالم وفي نفسي، لأنني ما قدرتش أعمل حاجة عشان أوقفهم. قبل ما يحصل كدا ما كانش ممكن أتصور إن ممكن حد يدخل ما بيني وبين جسمي. ما كنتش أعرف إن الاحتمال دا موجود. بعدها حسيت بالانتهاك والإهانة. يمكن هو

دا الجواب على سؤالك ليه ما عنديش ثقة في نفسي. ويمكن الإجابة أكبر من الموضوع دا ومن الحياة دي بكتير. بس بعد ما رجعت من عند الطبيب ما كنتش قادرة أستوعب اللي حصل لحد ما شفت رشا بتطبخ كوسة محشية وحسيت إنهم عملوا فيا نفس الشيء. حسيت بألم في بطني ورشا بتقور الكوسة وتشيل منها أحشاءها وبعدين تحشيها بجسم تاني مالوش علاقة بالكوسة. حسيت إنهم عملوا معايا نفس الشيء: شالوا أحشائي وحشوها قطن عشان أبقى لعبة مطيعة ما تسببش مشاكل. قتلوا حيوات كتير كان ممكن تطلع مني عشان يسألوا حياتهم الفارغة. - مفنقدة شعور الأمومة؟

- مش عارفة الأمومة دي تبقى إيه بالظبط. بس يوم ما صحيت ولاقيتك نايم جنبي فوق قبر أم كلثوم بصيت لك كتير وحسيت بشعور ممكن أتخيل إنه شعور الأمومة. حسيت إني عايزة أدفي الرخام اللي تحتك ومحتاجة ألمس كل شيء فيك.. حسيت إني محتاجة إني نهر عايز يفيض عليك بكل خير. حسيت إني محتاجة أعطيك حاجات كتيرة مش عارفة إيه هي. أنا ما اعرفش أمي، بس لو كان لي أم كنت عايزاها تحس تجاهي زي ما كنت حاسة تجاهك وانت نايم فوق القبر. الحب وحده بيخلينا نحس بقيمتنا ويخلينا نفهم قيمة الحياة رغم عبثيتها وقسوتها. اختفت حدة الغضب من ملامح كشري ونظر بحنان لعيني باستيت ولم يجد ما يقوله. فقد قالت كل ما كان يشعر به ولكن لا يستطيع أن يسكبه في كلمات.

- أهي النظرة اللي في عينيك دي برضو نظرة أمومة يا كشري.. برضو ساعات باحس إنك أمي. مش عشان بتحميني

وتفلق على نومي وأكلي. لكن عشان فيه رابط بيني وبينك مالوش دعوة بحياتنا اليومية ومتطلباتها.

- أنا لو كنت أمك ما كنتش سبتك تروحي أبداً.

- بيقولوا إن الأمهات بتعمل حاجات عجيبه عشان تحمي أطفالها. مش ممكن أمي تكون حاولت وما نجتشش؟ أو يمكن سابنتي أمشي عشان عارفة إن دا لمصلحتي. ساعات لما الأم بتسيب أطفالها تروح، بيكون عشان فيه شيء تاني أعظم في انتظارهم وهي مش عايزة تقف في طريقهم. زي قصة الأم اللي رمت ابنها في النيل عشان كان فيه ملك ظالم بيقتل كل الأطفال اللي اتولدوا في السنة دي. هي ما عملتش كدا عشان مستغنية عن طفلها، لكن عشان تحميه وعشان عندها يقين إن فيه مكان أفضل مستننيه. وفعلاً ابنها عاش وبقى ليه شأن عظيم.

- انتِ عرفتي القصة دي منين؟

- مش عارفة. ساعات باحس إن كل حاجة حصلت في مصر في كل العصور حصلت قدامي أو حصلت لي أنا شخصياً.

عايز تسمع حدوتة تانية عن أمين وطفل؟

- أه.

- كان في مرة اتنين ستات ولدوا في نفس الليلة، واحدة منهم طفلها نزل ميت. تروح الأم المجروحة على موت طفلها تدّعي إن الولد بتاع الست التانية يبقى ابنها هي ويحصل بينهم خناقة كبيرة. راحوا قصر الحاكم ووقفوا بين ايديه وشرحوا له المشكلة. الحاكم قال لهم الحل بسيط: بكرنا الصبح تجيبوا الولد وتيجوا وأنا الأقي لكم الحل.

في الليل نامت الأم اللي ابنها مات نوم عميق وفضلت الأم الحقيقية تمسح راس طفلها وتغني له وتبكي طول الليل. لما جا الصبح أخذوا الولد وراحوا لقصر الحاكم ووقفوا بين يديه. الحاكم قال: عايز كل وحدة منكم تمسك الولد من ناحية، واحدة تمسكه من رجليه والثانية من ذراعاته وتفضلوا تسحبوا لحد واحدة منكم تتغلب ع الثانية وكذا اللي تشد الولد ناحيتها يبقى حلال عليها وتحفظ بيه. الست الأولى وافقت فوراً أما الثانية سقطت على ركبها وبكت وقالت للحاكم خلاص خليها تاخذه وتعيشه كويس بس ما تأذيهوش. ساعتها فهم الحاكم إن اللي رفضت تحوّل جسم طفلها الطري لساحة قتال تبقى الأم الحقيقية، وأعطاهما الطفل. فيه حبيبات بيعملوا زي الأم دي، ما بينحدروش بالحب لمستوى النزاع لأن الحب منهم وليهم وإذا تنازعا ع الحبيب بينزلوا لمستوى الغريب اللي مالهوش حاجة بالحبيب غير ادعاء الحب.

- مش فاهم... إزاي حد يتنازل عن حد بيحبه بالشكل دا. مش مفروض اللي بيحبوا بعض يفضلوا سوا على طول؟
- دا مش تنازل. دا إيمان.
- إيمان إزاي؟ لو فرضنا إن الحاكم ما كنش حكيم كانت الأم انحرمت من طفلها طول العمر.
- الحب ما بيحسبش الحسابات دي، الحسابات للفكر اللي ببسجناك جوا جدران القلق وحب التملك، بس الحب ما بيعرفش غير اليقين. الحب بيعرف إن الحبيب منك وليك وإن مافيش قدر ولا بشر يقدرُوا ياخدوه منك.
- انت إزاي تعرفي كل الحاجات دي عن الحب؟

- أنا بأسأل نفسي السؤال دا كثير من يوم ما قابلتك...

لم ينتبه كشري وباستيت أن عربة الكارو غادرت طريق صلاح سالم ودخلت إلى مدينة الموتى.. مقابر أخرى أكبر بكثير من مقابر الإمام الشافعي.. ولكنها تختلف.. حيث جاء مزيد من الأحياء ليزاحموا الأموات في مراقدهم وبنوا بيوتاً وعششاً بجوار القبور، فصار نصف مليون مصري يعيشون في مدينة الموتى ومعهم آلاف القطط والكلاب. قفز كشري وباستيت من العربة ليعودوا للطريق الرئيسي مرة أخرى، وما إن وطأت أقدامهما الأرض حتى تجمع حولهما ما يقرب من عشرين قطاً مسعوراً. قسم القطط أنفسهم لفريقين: فريق شغل كشري بمعركة طويلة وفريق آخر ساق باستيت خلف أحد المقابر الكبيرة واستفرد بها هناك. كان كشري محاصراً من عشرة قطط وكان يخبئ وجهه بمخالبه.. تجنب كعادته الخوض في معركة ورضخ لقدره. لكنه حين سمع صراخ باستيت خلف جدار المقبرة وقف يذود عن نفسه ويدفع القطط بعيداً عنه. كانت كل صرخة من باستيت توقظ الحيوان المفترس بداخله. لم يستطع كشري أن يتخلص من الحصار سريعاً وكانت كل دقيقة تمر تزيد رعبه أن يصيب باستيت مكروه. ركله زعيم العصابة في بطنه ثم ضرب رأسه فسقط مغشياً عليه. رأى في غيبوبته أن القطط الأخرى جرّت باستيت إلى مكان بعيد وتناوبت اغتصابها، وهو ينظر إليها بعجز يكاد يقتله. أفاق وهو يصرخ من الألم فإذا به يرى باستيت تقف على رجلين والقطط تلتف حولها وتتأهب للهجوم عليها. فجأة خرجت امرأة عجوزة من

بيت مجاور للمقبرة ونهرت القطط ففروا إلا باستيت ظلت مكانها. مدت المرأة يدها لباستيت التي وقفت تراقب نقوش الحنة في يدها وكأنها خريطة سرية لتاريخ مفقود. أسرع الخطي نحو كشري فوجدت القطط انفضت من حوله أيضاً. راحت تلحق الدماء التي تسيل من بطنه وهو يراقبها بامتنان مزدوج. امتنان أن مكروهاً لم يصبها، وامتنان شعوره بلسانها يغوص في لحمه.

مشى الحبيبان منهكان في المقابر باتجاه الطريق العمومي تاركين خلفهما غبار المعركة وعيون المرأة العجوز تحرسهما وهما يغادران المكان.

مرت أسابيع زارت فيها باستيت كل حي وكل زقاق من أزقة القاهرة القديمة مع كشري ثم كانا يعودان لينا ما بجوار بعضهما في سينما الشرق. كانا يسيران ذات مرة على كورنيش النيل في صمت، وهما يراقبان أبًا يحمل طفله على كتفيه ويرقص به على أنغام أغنية شعبية. قطعت باستيت صمتها وشرودها وسألت:

- انت بتحب أطفال البشر الصغار يا كشري؟
- ما فكرتش إن كنت باحبهم قبل كدا. بس هم بيحبوني وفي أطفال كتير بيدوني من أكلهم مع إني مش قط ودود وما اعرفش اتمسح في البشر عشان يحنوا عليًا. الاطفال ممكن يعلمونا حاجات كتير عن الحب. الطفل بيطلب من أمه وأبوه حاجات كتير وبيطلبها بإصرار من غير ما يحسب حسابات ويقول من حقي ومش من حقي. الطفل بيحب أهله، وباسم الحب دا تلاقية بيطلب وما يفكرش يدي في المقابل عشان الحب عنده مجاني. وباسم الحب تلاقية بيديك حاجات مالهائش قيمة بس هو بيحبها وبيتسلى بيها، زي لعبة قديمة أو كيس بسكوت فاضي. باسم الحب ممكن يشيل أكل ممزوج بلعابه ويدهولك عشان هو لاقية لذيق ولأن ما عندوش فكرة القرف عشان يسقطها عليك. ولأنه بيحبك. الحب بسيط عند الأطفال وبيشبه نفسه كتير.
- والحب عند الكبار ما بيشبهش نفسه؟
- لما يكبر الطفل شوية بيتدي يتعلم إن الحب أخذ وعطا. بيتعلم إزاي يعطي عشان ياخذ شيء في المقابل. بيتعلم إنه يحسن التصرف عشان ما ينحرمش من حاجات بيحبها، وكمان عشان يستحق حب الآخرين. بيعلموه فكرة إن الحب مسئولية. هنا

الحب ببيندي يرتبط بالمنطق والحسابات. الطفل لما بيكبر بيتعلم إن الحب له مقابل. وطالما اللي قدامه بيفكروا زيه بيبقى الحب زي معادلة اهرش لي ضهري وأنا أهرش لك ضهرك. وكمان فيه ناس بتعطي من غير ما تنتظر مقابل، بس بتكون واعية إنها بتعطي وما بتأخذش مقابل. التصرف دا هو برضو نوع من الحب، بس حب أضعف من حب الأطفال الصغار.

- يعني حب الكبار مش حب؟

- لا طبعاً حب. بس اللي بيحب منهم بيبقى واعى إنه بيدي، وبيبقى واعى إن اللي بيحبه محتاج ياخذ منه، وبينتظر إن حبيبه يفرح ويشعر بالامتنان لعطاياه. وبيزرع لو مد إيديه مليانة ورجعت مليانة.

- طيب فين الحب اللي يشبه نفسه؟

- فيه ناس بتكبر وبتكبر قلوبها معاها. الناس دول لما يحبوك يحبوك وكأن الحب بيصيبهم هم، ولما بيدوك بيدوك وكأنهم بياخدوا منك. عشان كذا هم ما بيميزوش مين بيدي ومين بياخذ، مين بيحب ومين بيتحب. هم ما بينتظروش تتلقى منهم أو إنك تديهم. عطاؤهم وأخذهم مش اختيار وإنما قدر. هم زي النبع اللي بينسكب عليك سواء كنت بتشربي منه أو بتلمي جرّة أو بتعومي فيه أو حتى منصرفه عنه. هو بيتدفق عشانك أنت، وعنده يقين إنه انوجد عشان الغاية دي بس. ودا مش بس الحب اللي يشبه نفسه، دا الحب اللي كل أنواع الحب التانية بتتشبه بيه وبتستظل بضله وبتسجد تحت أسواره. دا الحب الخالص بنفسه ولنفسه!

قفز كشري مع باستيت في قارب شراعي نيلي مع بعض الشباب المزوغين من المدارس.. كان الشباب منشغلين بالرقص على أنغام أغنية "آه يا دنيا"، بينما تحرك كشري وباستيت نحو سن المركب الأمامي. قال لها إنها لو جلست فوق السن مباشرة فسيبدو لها أنها تمشي على الماء. قال إنه في كل مرة يجلس عند سن المركب يشعر أنه كان طائرًا في إحدى حياته السابقة. جلست باستيت في المكان الذي نصحتها به كشري وراحت تراقب النيل الذي تدفق تحتها كألف مرآة. في كل مرآة ألف قصة من تاريخها القديم.. كانت تشعر بالارتياح مع كشري، لكن ما رأته في محل بيع القطن وما حدث عند المقابر كان لا يزال يؤرقها. أشار كشري بمخلاه صوب العوامات المتراسة على ضفة النهر وقال لها إن معظم هذه العوامات تظل غير مسكونة طول السنة، اشتراها أصحابها لينعموا بقرب النيل لكن مشاغل الحياة تلهيهم عن الاستمتاع بما اكتسبوا. قال إن معظم البشر مثل هذه العوامات التي هي خليط من البيت والقارب، ولكنها بيوت غير مسكونة وقوارب لا تُبحر. حكى لها عن حريق كبير شبَّ في ثلاث من هذه العوامات ذات مرة بسبب نزاع بين مستثمر يريد تحويل المرسى إلى مطعم سياحي كبير وأصحاب العوامات الذين يرفضون بيعها رغم أنهم لا يستخدمونها، فجاء "فاعل خير" وأشعل النار فيها. كان كشري يراقب ألسنة النار وهي تتصاعد من العوامات الثلاث وانتابته حالة من النشوة. أحس وكأن العوامات هي التي طلبت الحريق بنفسها ووقفت ترقص وسط اللهب محتلة بحريتها من السكون والانتظار. كان يريد أن

يقول لوحدة الإطفاء البحري التي حاولت إخماد الحريق "دعوها تحترق". كانت باستيت تصغي إليه وهي تفهم جيداً ماذا يقصد. قال لها إن الناس تشعر بالشفقة تجاه الغابات المحترقة، في حين أن هذا الحريق قد يكون فرصة لنمو جديد. قال إنهم يشعرون بالأسى على الثلج الذائب عند القطبين خوفاً من ارتفاع منسوب المياه في البحار وإغراق الأرض، ولكن من سأل الثلج إن كان يريد أن يظل محبوساً في قطبه؟ ربما أراد الثلج أن يتحرر ويعود للبحر.

- تعرفي الكوبري دا؟

أشار كشري صوب كوبري مطلي باللون الأزرق وقال لها إنه من أقدم الكباري في مصر وإن المهندس الذي صممه انتحر بعد إكمال بنائه لأنه اكتشف أنه لا يمكن فتحه كي تمر السفن الكبرى، فأصبح كوبري إمبابة عائقاً في طريق الملاحة بدلاً من أن يكون جسراً يسهل العبور. قال كشري إنه في كل مرة يمر بالقارب تحت هذا الكوبري تصدر منه صرخة لا إرادية لا يفهم من أين تأتي ولا ماذا تريد. وضعت باستيت يدها على حلقها وكأنها تتحسس صوتها الغائب عنها منذ أن وعت أن لها صوتاً. أحست بحبالها الصوتية ترتجف وبأنين ألف صرخة مكتومة في حلقها. وحين وصل القارب تحت الكوبري حاولت الصراخ، ولكن لم يصدر منها صوت. شعرت برجفة كبيرة أفقدتها توازنها فسقطت في المياه. نظر كشري إليها والقارب يبتعد عنها بينما هي تخطب بمخالبها فوق سطح الماء حتى لا تغرق. ألقى كشري بنفسه في الماء وراح يلاطم الأمواج للوصول إليها ولكن تيارات الماء التي تسببها المراكب الكبيرة

والصغيرة كانت تبعدهما عن بعضهما. رأى كشري أن باستيت لا تقوى على الاحتفاظ برأسها فوق الماء وأنها تجد صعوبة في العوم فراح يضرب بيديه بكل قوة فبدأت المسافة تضيق بينه وبينها، ولكنها كانت لا تزال بعيدة. ازدادت ضربات قلبه وهو يضرب الماء بمخالبه بينما رأس باستيت يغوص تحت الماء. وفي الوقت الذي كاد يقترب منها مر قارب بخاري بينهما وخلق تيارًا جديدًا أبعدهما أكثر. نظر كشري فلم يجد باستيت فوق سطح الماء فراح يصرخ كل الصرخات التي حاولت باستيت أن تطلقها تحت الكوبري ولم تستطع. ولكن قبل أن يتملكه اليأس رأى صيادًا يقفز من مركبه ويتوجه نحو البقعة التي غطست فيها رأس باستيت وغطس خلفها وخرج رافعًا يده اليمنى وباستيت تجلس مبتلة في قبضته وهي تتنفس بصعوبة. أحس كشري أن الحياة عادت إليه مرة أخرى فأسرع العوم نحو الصياد وصار يسبح خلفه حتى وصل الجميع إلى الضفة النهر. رقدت باستيت ترتجف وكشري يرتمي فوقها ويجفف فروتها بلسانه.

جلست نورا في ركن باستيت المفضل بجوار النافذة وهي تتصفح صور باستيت القديمة على هاتفها المحمول.. باستيت تقفز في الحديقة.. باستيت تأكل.. باستيت تبدو غاضبة.. باستيت تليس طاقيّة على هيئة شقة بطيخة.. باستيت تنظر بريية لتورته عيد ميلادها. باستيت تنام في سلام فوق الاستيريو.. نورا تعانق باستيت.. رعشات قوية.. ودموع كثيرة وابتسامات مقتضبة.. نورا تواصل تصفح الصور.

- مش معقول يا نورا هتفضلي طول النهار تلعبى بالموبايل.. قومي يا حبيبتى اتدربي على البيانو بتاعك شوية!

- ماما.. أنا مش عايزة ألعب بيانو ولا عايزة أعمل حاجة.

- نورا.. انتِ مش فاهمة.. انتِ عايشة في فيلا جميلة وبتاخدي مصروف زي مرتب موظف حكومة.. بس دا ما بيحيش ببلاش.. بابا درس واشتغل ونجح وماما كمان اشتغلت ونجحت.. بس النجاح دا مش مضمون.. ممكن في يوم تلاقينا فلسنا.. ممكن عيادة بابا يحصل فيها حاجة أو عملية تقفل وصاحبته ترفع عليه قضية وتشوه سمعته..

- أنا مش فاهمة إيه علاقة دا بالبيانو.. كنت هافهمك لو قلت لي قومي ذاكري دروسك.. بس انتِ عارفة إني مذاكرة وإن درجاتي كلها كويسة.

- يا نورا يا حبيبتى.. الحياة صعبة وكل شيء ممكن يتغير في لحظة.

- برضو لسه مش فاهمة يا ماما.. إيه علاقة دا بالبيانو!

- حبيبتى انتِ صوتك يجنن في الغنا.. دي موهبة ربنا اداها لك ولازم توصليها للناس. أنا قدمت لك في مسابقة ذا فويس كيدز.

- نعم؟!!

- أنا لاحظت إنهم في المسابقة دي بيختاروا دائماً الطفل اللي سنّه صغير واللي بيلعب آلة موسيقية أثناء ما بيغني. انتِ هيبقى عندك ١٥ سنة لما المسابقة تبدأ في ديسمبر. يعني كبرتِ شوية. بس لو غنيتِ وانتِ بتلعي بيانو أكيد فرصتك هتكون كويسة.. دا انا كمان اخترت لك الأغنية اللي هتدخلي بيها المسابقة "إني خبيرتك فاختراري" عشان كاظم الساهر عضو في لجنة التحكيم وأكيد أول ما هيسمع أول مقطع ويسمع عزفك ع البيانو هيلف على طول، ومش بعيد يعمل معاكي دويتو زي اللي عمله مع البنات اللي كسبت السنة اللي فاتت. انتِ عارفة: دويتو زي دا ممكن يغير حياتك للأبد...

- يااااه يا ماما.. عملتِ كل دا من غير حتى ما تاخدي رأيي؟! لا يا ماما أسفة.. مش هاروح المسابقة دي، ومش هاقوم اتدرب على البيانو ومش هاعزف قدام حد من ضيوفك تاني... قالت نورا بصوت عالٍ.

- بنت.. انتِ ازاي تتكلمي معايا بالشكل دا؟!!

صاح أشرف من غرفة المكتب:

- إيه فيه إيه؟ بتز عقوا ليه؟

جرت نورا لأشرف وصرخت:

- بابا انتو ازاي تقدموا لي في ذا فويس كيدز من غير ما حد يسألني؟ هو أنا خلاص ماليش أي قيمة؟ أنا دلوقتي بس بدأت أفهم باستيت مشيت ليه.. حبييتي كانت حاسة إن البيت دا مافيهوش حد سعيد..

- نورا أنا مش عارف انت بتتكلمي عن إيه! أنا ما قدمتلكيش
على حاجة..

ذهب أشرف إلى رشا وسألها:

- إيه الحكاية يا رشا؟

- الحكاية إني عايزة أمن مستقبلها، بدل ما تخلص دراستها وما
تلاقيش شغلانة في البلد المخروبة دي.

- رشا.. البلد دي مش مخروبة.. ولو فيه حد له الحق إنه يشتكي
منها فأكيد مش انت.. انت عايشة فيها أحسن عيشة بأقل
مجهود..

- أيوه بقى سمعني أسطوانة كفاح ابن السيدة زينب وازاي بنى
نفسه بنفسه.. سمع واشجيني.

- لا أشجيك ولا تشجيني يا رشا.. دي ما بقتش عيشة.. قاعدة
تتأمري وتتشرطي ومحدث عاجبك.. بتصرخي فينا صبح وليل
وسكتنا.. كسرتي دراع الخدامة الأثيوبية وذلتها لحد ما حاولت
تنتحر وقلنا معلش.. بتتجسسي عليا وسكت.. كفاية بقى.. روعي
عالجي نفسك من التوتر والبارانويا اللي مسيطرين عليك.. لو
حياتك مش عاجباك غيريها، بدل ما انت عمالة تهندي حياتي
وحياتك بنتك.. انت طريقتك في التفكير وفي الحياة ما خلتكيش
سعيدة.. لا فلوس ولا نجاح خلوكي واثقة في الحياة ولا واثقة
في نفسك.. سيبني بنتك على الأقل تختار طريقها بنفسها.. ياللا
بينا يا نورا هنتعشى برّا الليلة!

- معلش يا نورا.. ماما بتخاف من تقلبات الحياة.
قال أشرف وهو يشعل سيجارة داخل السيارة:

- باباها كان رجل أعمال كبير وكان غني جداً، وبعدين دخل في خناقة على أرض في شرم الشيخ مع واحد من الكبار أوي. فالرجال دا ورطه في ٣ قضايا فساد ورشوة وتهرب من الضرايب خرب بيته.. جدك هرب بره مصر ومات في باريس وساب مامتك وطانط عايدة من غير ولا مليم هناك.. عايدة اتجوزت واحد مصري شغال في السفارة في باريس وماما حاولت تدرس في الجامعة بس ما نجحتش في الدراسة.. واشتغلت جرسونة في مطعم مغربي وصاحب المطعم كان بيضايقها كثير ويتحرش بيها وكدا.. ماما فكرت إن راس مالها هو جمالها والإتيكيت اللي اتعلمته من أسرتها الأرستقراطية، وحست إن السلعتين دول مالهمش سوق في باريس... فقررت ترجع مصر وتستثمرهم في شيء مفيد.. بدأت كفتاة إعلانات، وبعدين رقصت ورا مطربين في الكليبات بتاعتهم.. دروس الرقص والباليه اللي كانت بتأخذها وهي صغيرة أفادتها.. وأهي سكة الرقص أخذتها لسكة التمثيل... التقلبات اللي حصلت في حياتها دي أفقدتها الثقة في الحياة.. دايمًا بتحسب كان ممكن تورث كام وقد ايه حياتها كان ممكن تبقى مرتاحة أكثر من كدا..

- آه بس هي حياتها مرتاحة جداً وأهي نجحت في التمثيل أهه وبقث عاملة أكثر من عشر أفلام وسبع مسلسلات.
- هي مرتاحة بس مش سعيدة.. عشان الحاجات اللي بتسعددها مرهونة بالوقت والظروف وبحكم الناس عليها.. هي لاحظت إن ما عادش بيجيلها أوردرات لأفلام ومسلسلات زي الأول، وهي كمان عدت الأربعين، ودي مصيبة تانية.. لأن كل يوم

ممثلات جديدة بتظهر والسوق بيحب التجديد، وماما عارفة
كويس إنها مش فائن حمامة ولا سعاد حسني، وهي في صراع
مع الزمن وخايفة تفقد جمالها وفلوسها.
- بس يا بابا الناس اللي شفناهم في السيدة زينب ماعندهم
ربع اللي عندنا وشكلهم مبسوطين ومش خايفين.
- السيدة زينب كمان رعب كبير لماما.. خايفة اني اسببها
وارجع أعيش هناك.
جلس أشرف ونورا في مطعم بمصر الجديدة ينتظران أذان
المغرب.

- هو انت ناوي تسيب ماما؟
سألت نورا.

- مش عارف يا نورا والله. أنا وماما عمرنا ما حبيننا بعض
بجد.. لما اتقابلنا كنت لسه خارج من قصة قاسية جدًا وكنت
عايز أنسى..
- قصة ايه يا بابا؟

وضع أشرف يده على رأسه وراح يتذكر الفتاة الجميلة التي
كانت تسكن في البيت الأزرق بجوار بيته في حي السيدة زينب
عندما كان طالبًا في كلية الطب. تذكر أن كلاً منهما كان يقف
على سطح بيته ويلوحان لبعضهما بإشارات عن مكان التقائهما.
فكانا يلتقيان مرة في سينما الشرق ومرة في كهف في جبل
المقطم ليستمعا لأغاني أم كلثوم. وبعد أن انتهى من دراسته
ذهب للعمل طبيب تجميل في لبنان، ولكنه كان يلتقي بحبيبته
سرًا أثناء زيارته لمصر. وذات مرة اتصلت به الفتاة الحسنة

بعد أن سافر بفترة وقالت له باكية إنها حامل. أحس أشرف
بالرعب فلم يكن يريد أن يكون مستقبله كله مرهوناً بهذه العلاقة
ولا ببیت وأطفال. أغلق الهاتف ولم يرد على مكالمتها بعد ذلك.
واضطر لقطع علاقته بأسرته حتى لا يفتح أحد الموضوع معه.
وبعدما عاد من السفر سمع من أخيه عادل أن والد الفتاة قتلها
ودخل السجن ومات فيه بعد سنة. عاش كل هذه السنوات
وعذاب الضمير يؤرقه ولم يكن يجرؤ على التجول في شوارع
الحي إلا بعد أن ضاعت باستنيت.

شعرت نورا بضيق نفس شديد وهي تنظر لعيون أبيها المحترقة
بالدموع. لم تستوعب ما يدور في رأسه لكنها ظلت صامتة.
- كنت لسه خارج من قصة حب فاشلة، وبعدين قابلت مامتك..
كانت جاية مع أختها عايذة اللي بعد ما رجعت من باريس بقت
زبون دائم عندي.. أنا وماما استلطفنا بعض وقررنا نتجوز
بسرعة.. ما كانش حب، وإنما إعجاب.. هروب.. مش عارف.

فكرة مَن كانت أن نجعل الكذب مقبولاً في أول يوم من شهر أبريل فقط؟ وكأن يوماً واحداً يكفي ليروي عطش البشر للكذب والهروب من حقيقتهم؟ ما معنى أن نكذب على الآخرين أصلاً؟ إذا ذهبنا إلى جذور كل كذبة على حدة هل نجد عند جذورها أنفسنا أم أشخاصاً آخرين؟ أليس مصدر الكذب هو خوفنا من مواجهة أنفسنا؟ البعض يعتقد أن البشر يكثر الكذب لأنهم يعيشون في رءوسهم كثيراً ويفكرون كثيراً. ماذا لو عاشوا في قلوبهم أكثر؟ أيفكرون أقل؟ أيكذبون أقل؟

فرغ أشرف من الكشف على مريضة وحدد معها موعداً لشفط بعض الدهون من فخذها وحقتها في وجهها. دخلت الممرضة لغرفة الكشف وقد بدت عليها علامات الاضطراب وقالت: "فيه تليفون يا دكتور من الأستاذ سامي المخرج بيقول إن مدام رشا تعبانة شوية وودوها المستشفى". وقف أشرف مذعوراً وتوجه لغرفة الاستقبال للرد على المكالمة.

- أيوه يا سامي فيه ايه؟
- كنا بنصور مشاهد في المسلسل الجديد، وفجأة رشا فقدت صوتها وما قدرتش تقول الكلام وبعدين جاتلها نوبة هلع وفقدت وعيها.
- طيب انتو فين دلوقتي؟
- في مستشفى كليوباترا اللي ورا مدينة الإنتاج الإعلامي.

وقف أشرف ونورا والمخرج سامي أمام رشا التي لا تزال في غيبوبة في سريرها. أنبوب جلوكوز يصب الحياة الصناعية في

عروقها من جهة، وشاشة تستعرض ذبذبات قلبها من الجهة الأخرى. قال الطبيب إنها مصابة بانهيار عصبي وستتعافى منه بعد أيام. قال إن السبب قد يكون ضغطاً زائداً في العمل أو في محيط الأسرة، وحذر الجميع من الدخول معها في جدل أو توصيل أي أخبار مزعجة إليها خلال تلك الفترة.

- إيه اللي حصل بالطب يا سامي؟ سأل أشرف.
- كنا بنصور مشهد عادي جداً، والشغل كان ماشي تمام، وكان الدور على رشا إنها ترد على وائل وتقول له "باحبك"، بس الكلمة وقفت في زورها ووشها احمرّ وقامت تنترعش ووقعت ع الأرض.

طالب الطبيب الجميع بمغادرة الغرفة كي لا تنزعج رشا. اقتربت منها الممرضة وأمسكت بيدها وهي تقول: "ألف سلامة ليك يا ست الكل".

قد يعتبر البعض خيانة الصوت من أشد الخيانات قسوة ورعباً. وذلك لأن صوتنا هو دليل وجودنا الواضح وأداتنا الوحيدة لنشرح للآخرين من نحن وماذا نريد. هو أداتنا الرئيسية لنعبر عن القبول والرفض والاختلاف والغضب. وحين يتخلى عنا الصوت نصير كمن يرى في منامه وحشاً مفترساً يتعقبه لكنه لا يقوى على المسير أو الاستنجاد بأحد. ولكن لو حلّ السكون مكان الصوت الغائب هل سيقى الأمر بنفس القسوة؟ البعض يظن أن غياب الصوت يعني الصمت ولا يلاحظون أن السكوت والصمت ليسا نفس الشيء. السكوت يقتصر على سكوت اللسان أو عجزه عن الكلام، وقد يكون القلب والرأس في هذه اللحظات في أشد حالات الفوران والغليان. ولكن الصمت هو صمت الأفكار، هو السكينة والهدوء وما يجلبانه من قدرة على الإصغاء والإصغاء هو ذراعان مفتوحان للتلقي، للعناق، والفهم. رشا لم تصمت يوماً لتفهم ما يحدث حولها ولتلاحظ أن أشرف يعيش في غربة، وكذلك نورا. هي التي بدأت بخيانة صوتها الحقيقي وتركت صراخها الصاخب يقرر أنهما بخير وأنها تبلي بلاءً حسناً في إسعادهما. صنعت في رأسها وهماً مريحاً حول حقيقة الأشخاص والأمر وظلت تطلي هذا الوهم على قلبها المضطرب. ولكن عندما تلقت إشارات واضحة عن حقيقة الأمور خانها صوتها وارتفع ضجيج قلبها وتعالّت منه صرخات الخوف. الخوف أقوى من الكلام والصراخ معاً. يصبح معه كل انفعال مجرد تصرف ساذج. حتى السكوت يبقى سلاحاً ضعيفاً في محاربة الخوف.

أما باستتيت فكان صمتها يأتي من مكان آخر. كان يأتي من استغناء وسكون. باستتيت قالت القليل وأمضت معظم حياتها في الإصغاء والتلقي حتى نسيت أن لها صوتاً، فأخذ يضمّر كالعضلات التي لم يتم تمرينها لسنوات. لا بد أن صوت باستتيت كان حاضراً ولكنها لم تجد السبيل إليه. كان الخوف أيضاً يحجبها عنه. ربما كانت باستتيت أكثر انزائاً من أن تصرخ. لطالما تواصلت مع كل الأشياء والأرواح عبر الإصغاء والفهم فقط. كان قلبها كسطح بحيرة صافية يمكنها من رؤية القعر بوضوح حيث تظهر تشكيلات فريدة وكذلك ثغرات كانت باستتيت واعية بوجودها ومتصالحة معها. كان قلب باستتيت يعكس صفاءها الداخلي وغياب الاضطراب. لربما أرادت ان تصرخ لتقاوم الخوف. خوف قد يكون مصدره قربها غير المنطقي من كشري، فللمرة الأولى في حياتها يكون سلامها وتوازنها الداخلي مرتبطين بكائن منفصل عنها يقطن جسداً منفصلاً، يتألم وحده برفعة وصمت، يهيم على وجه الأرض معرّضاً لعشوائية الوجود وقسوته. لكن ليس بالصراخ ولا بالسكوت يمكن مقاومة الخوف.. بل بالإيمان. لربما كان عجز باستتيت عن الصراخ نابغاً من وعيها بهذه الحقيقة.

جلس كشري صامتاً على ضفة النيل بجوار باستتيت التي راحت تقلب نظرها بين النهر والسماء وكأنها كانت تقرأ في كتاب. كانت تحاول أن تلتقط أنفاسها وأن تعيد ترتيب الصور الغريبة التي رأتها ورأسها غاطس تحت الماء. جفت فروتها بسرعة بعد أن لعقها كشري وبعد أن تعرّضت للشمس بما يكفي.

- الجو حر أوي النهارده يا باستيت. تعالي أوديك مكان بارد.
قال كشري.

تحركا باتجاه المتحف المصري ودخلا من البوابة الرئيسية فلم يعترض طريقهما أحد. مرًا على مسلات وتمائيل عملاقة لفراغنة من عصور مختلفة، ثم صعدا السلم إلى حجرات بها مقتنيات مقبرة توت عنخ آمون، وبهو آخر به تماثيل لأختاتون ونفرتيتي. وفجأة شمت باستيت رائحة غريبة فتركت كشري وأسرعت إلى غرفة تزامح فيها عدد من السواح الأجانب أمام فاترينات. اقتربت من الفاترينة فرأت أشياء صغيرة ملفوفة بقماش أبيض. أمعنّت النظر في الأشياء ودققت حاسة الشم لديها فاكتشفت أن هذه الأشياء قطط محنطة. وقف مرشد سياحي يشرح للسواح أن المصريين كانوا دائمًا مهوسين بالقطط منذ القدم لدرجة أنهم كانوا يعتبرونها آلهة. قال إن منزلة الإلهة باستيت في مصر القديمة كانت لا تقل عن منزلة إيزيس وحورس بل ورع نفسه. وقد بنى لها المصريون معابد في منف غرب النيل وتل بسطا شرق النيل وفي الإسكندرية. وظل المصريون يحترمون القطط ويعطفون عليها حتى بعد دخول المسيحية والإسلام إلى مصر. قال إن أسعد قطط في العالم هي تلك التي تعيش في مصر. "ربما كنا جميعًا قططًا في حيوانتنا السابقة. هاهاهاها" قال المرشد بسخرية أثارت ضحك السواح. سألت سائحة المرشد عن السبب الذي جعل المصريين يحنطون القطط. فقال المرشد إن كل مصري أيام الفراغنة كان لديه قطة في بيته وكان يعاملها كأطفاله وكان يصلي لها في الصباح والمساء، وإذا ماتت القطة كان أهل البيت جميعًا يحلقون

رعوسهم وحواجبهم وكانوا يحنطون جثة القطة ويقدمونها قرباناً لمعبد باسنتيت.

وقفت باسنتيت تحمق في إحدى المومياوات وهي تشعر بنقل لفافات الكتان الملفوفة حولها وتشم رائحة اللبان المرّ المحيطة بالمومياء. كانت تشعر بأذى شديد وهي تنظر لهذه المومياء بالذات. راحت عيناها تغوص في تفاصيل المومياء وكأنها ثقب أسود ابتلع كل حواسها. أخذها الثقب إلى سرداب ذاكرتها المطموسة، قادها سرداب الذاكرة إلى مدخل معبد فرعوني جميل. وقف مئات الناس في طابور طويل أمام المعبد وهم يحملون القرايين ويطلبون الدخول. دخلت إلى ساحة المعبد فوجدتها محاطة بتمائيل جرانيتية لباسنتيت وسخمت. دخلت إلى بهو أعمدة ملونة بالأزرق والأحمر وهي تسرع الخطى نحو قدس الأقداس. كان دخان كثيف يتصاعد من المحراب، لكن كان ممنوعاً على الشعب دخول هذا المكان. وقف راهب أمام الباب وهو يمسك بمبخرة يطوحها يميناً وشمالاً. جاءت امرأة تسرع الخطى تجاه الراهب متجاهلة الطابور الطويل وهي تحمل شيئاً صغيراً ملفوفاً في قطعة من القماش. وضعت المرأة اللفافة على حجر وهي غارقة في عرقها وغير متحكمة في أنفاسها، فسلمها الراهب جوالاً صغيراً من القمح، فأسرعت الخطى لتخرج من المعبد وهي تبكي بحرقة. فتح الراهب اللفافة فوجد بداخلها قطاً ميبأ تسيل الدماء من رأسه.

شعرت باسنتيت فجأة بغثيان شديد أمام الفاترينة فأغلقت عينيها كأنها لا تريد أن تتذكر بقية المشهد. "كشري!" نظرت باسنتيت حولها فلم تجد كشري فأسرعت إلى خارج الصلاة ووجدته

جالسًا في انتظارها. اقتربت باستيت منه في حذر وراحت تلعق رأسه بلسانها.

كانا يسيران في اتجاه سينما الشرق بلا كلمات، وكانت باستيت تنظر لكشري نظرات ملؤها الحنان والحزن العميق. وكان كشري يرد بنظرات كلها حنان وحزن مماثل. وصلا إلى قاعة العرض في السينما حيث ينامان كل ليلة. وضع عم يونس لهما طعامًا ولكن أحدهما لم يقربه. ألقى كشري بنفسه على أحد الكراسي في مؤخرة القاعة الخالية من الزبائن، فاقتربت باستيت منه وراحت تحك جلدها بجلده وعيناها تفيضان بالحزن. ألقت بكل ثقلها على كشري الذي لف ذراعيه حولها وهو يتمني أن يصير جزءًا منها أو أن يفنى فيها حتى لا يبتعد عنها أبدًا.

وقفت الممرضة أمام رشا التي كانت لا تزال غائبة في غيبوبتها وراحت تنتظر إليها وابتسامة حزينة ترتسم على شفتيها. "ربنا يشفيك يا بنت الأصول"، قالت الممرضة وهي تمسح بكفها ظهر يد رشا. فجأة فتحت رشا عينيها ونظرت إلى الممرضة ثم نظرت إلى الغرفة وحاولت أن تتكلم ولكن لم يخرج أي صوت منها.

- حمد الله ع السلامة يا ست الكل. قالت الممرضة وقد تهلل وجهها بالفرح. نظرت رشا إلى عيني الممرضة وكأنها تريد أن تسألها ما الذي أتى بها إلى هنا.

- انت مش فاكرا ني يا ست رشا؟

هزت رشا رأسها يميناً ويساراً وغطت وجهها بيديها. خرجت الممرضة من الغرفة لتخبر الطبيب بالنبا السار.

في اليوم التالي دخلت الممرضة الغرفة وفي يدها دمية صغيرة وضعتها على صدر رشا. أمسكت رشا الدمية وراحت تحمق فيها وهي تحاول أن تتذكر ما يربطها بها. اقتربت الممرضة من الدمية وفي يدها حقنة بها ماء، ورشقت مقدمة الحقنة في ثقب بذراع الدمية وضغطت بإبهامها على السلنجة، فسالت الدموع من عيني الدمية. أشرق وجه رشا أكثر وراحت تهز رأسها وهي تنتظر إلى الممرضة.

- أيوه.. أنا عواطف.. خدامتك في بيت هيليوبوليس.. واللعبة دي لعبتك اللي وجدي بيه جابها لك معاه من باريس وانتي صغيرة.. كنت بتحبي اللعبة دي أوي.. بس لما شفّيتني مرة بالعب بيها وأنا فرحانة قلت لي خديها يا عواطف. طول عمرك قلبك كبير وبتحبي ان كل اللي حواليك يبقوا فرحانين.

ملأت الابتسامة وجه رشا وتحجرت الدموع في عينيها.
- تعرفي يا ست رشا. اللعبة دي هي السبب اني بقيت ممرضة.
في اليوم اللي حضرتك اديتها لي حسيت إن دا نداء ليا من ربنا
سبحانه وتعالى بيقول لي روجي عالجي الناس. للأسف ما
كنتش شاطرة في المدرسة عشان أدخل كلية الطب، بس دخلت
معهد ممرضات بعد الإعدادية. ورغم إنها شغلانة متعبة ورغم
إني باشوف فيها بلاوي كل يوم، إلا إني باحبها أوي. حاسة ان
ربنا بيستخدمني فيها عشان يبتسم ويواسي الناس ويعالجهم من
خلالي. كل ما كنت باشوفك في التلفزيون كنت بادعي لك ربنا
يهدي سرك ويسعدك زي ما وريتيني طريقي.

رفعت رشا يدها إلى فمها وكأنها تعتذر أنها لا تستطيع الكلام.
- معلش يا ست الكل، شدة وتزول. ما تزعليش. كل شيء
بيحصل لنا بيبقى رسالة من ربنا سبحانه وتعالى. ساعات
الرسالة بتكون جميلة في ظاهرها بس وراها ابتلاء، وساعات
الرسالة بتكون قاسية في ظاهرها بس في باطنها رحمة. تأكدي
إن ربنا لما حرمك من صوتك كان أكيد عايز يديك حاجة ثانية.
ربنا كل عطاياه حلوة، بس احنا اللي مش بنفهم كل عطاياه
صح.

فتحت رشا ذراعيها لعواطف فذهبت إليها وعانقتها فانهمرت
السيداتان في بكاء شديد.

رأى كشري في منامه أنه يطوف مع باستيت حول شجرة عجوز بطنها مفتوح. سألت باستيت "يا ترى الشجرة دي تعرف عنا إيه!". "لو عايزة تعرفي تعالي ندخلها. الشجر كله أسرار. بس ما بيبوحش بأسراره إلا للي متصالح مع نفسه ومع الكون"، قال كشري. دخلا إلى بطن الشجرة وتسلقا جذعها من الداخل، وبينما هما يضحكان ويتعانقان جاء رجلٌ وأشعل النار أسفل الشجرة، فتسربت أسنة النار إلى داخل الشجرة. أخذ كشري وباستيت يتسلقان الشجرة من الداخل وهما يضحكان ولا يأسفان على العالم الذي يحترق من تحتها. كان ارتقاؤهما بلا نهاية وكان الشجرة سلّم معراج بين الأرض والسماء. استيقظ كشري من النوم تسيق فرحة قلبه انفراج جفونه، لكن رائحة الدخان كانت لا تزال تزكم أنفه. راح يحملق في اللون الأحمر للمقعد وقد اكتشف أن باستيت لا تنام بجواره. احتاج إلى بعض الثواني كي يستوعب الصدمة ثم انتفض من الكرسي وراح يفتش عنها في كل مكان بالقاعة. كان يجول بين الصفوف ذهابًا وإيابًا ويفتش تحت الكراسي وبداخله صرخة رعب مكتومة. وبعد أن انتهى من كل الصفوف راح يعيد الكرة مهرولًا ويبحث تحت نفس المقاعد من جديد. قفز فوق المسرح وراح يفتش خلف الستائر وقد فقد السيطرة على خطواته. غادر القاعة وتوجه إلى خارج السينما حيث عم يونس يجلس على كرسيه المعتاد. كان يشد جلاب عم يونس بمخالبه وهو يئن. ظن عم يونس أنه جائع ودخل إلى غرفة بالسينما وعاد منها بما تبقى من سحوره، لكن كشري تركه وترك الطعام وجلس بجوار باب السينما يتربح عودة باستيت لمدة ساعتين، لكنها لم

تعد. وبعد أن أعياه الانتظار والقلق انتفض وراح يجرى باتجاه الشارع الذي التقى فيه بباستيت أول مرة. كانت ضربات قلبه تتزايد طوال الطريق وكانت جاذبية الخوف تشد مخالفه إلى داخل التراب. وقف أمام محل الكشري خائب الأمل وهو لا يراها حوله. توجه نحو محل الجزار ومرّ على البيت الأزرق فشعر بالأم شديدة في كل جسده. وقف أمام محل الجزارة وراح ينظر إلى عيون القطط وفي عينيه قسوة وخوف وتساؤلات لم يعهدها أحد عليه من قبل.

كان يتمنى أن يكون اختفاء باستيت مجرد حلم سخيّف وسينتهي بسرعة ويستيقظ ليحدها في أحضانه، ولكن سرعان ما تسرب إليه خوف خبيث أن الحلم لم يكن سوى لقائه بها، وها هو يفيق من السكرة ويعود إلى أرض الواقع. ولكنه رفع عيناه ورأى ملصقاً على جدار المحل فيه صورة باستيت تحته عنوان منزلها. انتفض حين رأى الصورة وحاول القفز لأكثر من مئة مرة ليلامس صورتها لكنه فشل. بعد أن كانت في حضنه البارحة صار أقصى أمل له أن يكون لثانية واحدة على مستوى عينيه. واصل القفز، لكنه فشل مراراً في لمس الصورة. سقط منهكاً على الأرض وقد تعالت أنفاسه وخارت قواه. انفصت القطط من حوله وتركوه وحده مع مراسم حزنه. راح يفكر في السبب المحتمل الذي جعل باستيت تذهب. هل صدر منه أي شيء أذى شعورها؟ هل كان لسقوطها في النيل بالأمس علاقة بغيبها؟ هل حرك منظر القطط المحنطة في المتحف فيها أحزاناً كانت تتفادى تذكرها؟ أم ربما لم تذهب طواعية؟ هل اختطفها أحد بينما هي غارقة في النوم بجواره؟ أم أنها خرجت

مختارة وضلت طريق الرجوع؟ أم أن سيارة.....؟ كانت الأفكار تدور بسرعة في رأسه، بينما الأرض تدور أسرع تحته. لكنه سرعان ما انتفض قائماً حتى لا يضيع دقيقة واحدة دون البحث عنها.

مشى يحمل الليل فوق جلده وفي قلبه في وضح النهار. كان يجر أقدامه بصعوبة ويجوب كل الشوارع التي مشى معها فيها. انفتحت أبواب المدينة أمامه على غريان تحوم فوق رأسه وتتعلق في صدره، انفتحت على حفرة واسعة من ضياع. كان يسير ومخالب الخوف تحفر تحت أقدامه وتزيد الحفرة اتساعاً. ذلك الخوف الذي يعرف رائحة كل جرح من جروحه جيداً، لكنه لم يفتح بوابة قلبه إلا اليوم. كل شيء كان يدعوه للسقوط في الحفرة ليندثر فيها من نفسه وظنونه. ولكنه كان يشعر أنه فقد الحق في كل شيء حتى في السقوط. كان يسير وقد خاصمته الألوان والروائح وبهجة الأشياء الصغيرة. لم يكن هناك ما يستر عورة أو جاعه أو يخفف عنه صليل الخناجر في أنفاسه.

تسلق هضبة المقطم وكأنه يحمل الكون كله على ظهره. جلس على سن الزورق الأزرق وراح ينظر للقاهرة العملاقة من أعلى وعيناه تقسمتا إلى مليون مربع صغير تتجول محمولة بين البيوت والطرقات تحاول أن ترصد كل شبر في المدينة. كان يتساءل في أي زقاق وخلف أي جدار تختفي حبيبته. كان حتى ذلك اليوم يظن أنه رأى كل شيء في الحياة وقاسى أشد أنواع الألم وفهم متاهات القدر وعبراته، ولكن لا شيء ولا ألم يمكن مقارنته بما يشعر به اليوم. كان يشعر دائماً أنه متفوق

ليس فقط على البشر ولكن أيضاً على القطط بسبب فطرته النقية ووعيه العالي، وبسبب أنه لم يكن يطلب شيئاً ولا يندم على فقدان شيء. ولكنه اكتشف اليوم أنه ليس إلهاً وأنه يندم ويطلب. يندم على أنه لم يعانقها لفترة أطول قبل أن ينام البارحة، يندم على أنه نام البارحة من الأساس. ندم على كل لحظة نظر فيها بعيداً وهي بجواره في الشوارع أو فوق الجبل. ندم على نبرة الغضب التي لاحظتها باستيت في صوته وهو يتحدث عن حياة قطط الشوارع. ندم على كل حكمة كان يحاول أن يعلمها إياها وكأنه عارف ببواطن الأمور. اليوم صار يطلب نظرة واحدة من عينيها. نظرة فيها شهد الحب وخلاصة المعرفة. لقد خاض آلاف المعارك في حياته من قبل، كسب بعضها وخسر الآخر منها، لكنه اليوم يشعر بمرارة الهزيمة لأول مرة. مئات الحيوانات المليئة بالأفراح والألام جعلته يؤمن أن الصلوات لا تغير القدر. ولكنه اليوم يريد شيئاً يشبه الصلاة، شيئاً يعيره قدرات الآلهة ليوم واحد، أو حتى لثانية واحدة.

رأى ظله ينكمش أمامه والشمس تتعامد على رأسه. كانت حرارتها الشديدة تزيد من غليان الأفكار التي انفلتت من لجام رأسه، لكنها لم تحميه من رجفة الخوف التي كانت تدب في أوصاله. خوف مركب صار ينمو بداخله مثل وحش مفترس يتغذى على كل ما تعلمه من حكمة وصبر. خوفه من أن مكروهاً قد أصابها وخوفه من أنه لن يراها بعد اليوم، وأن عليه أن يعيد ترتيب حياته كما لو لم يرها أبداً. ولكن كيف ولقاؤه بها حوّل مسار حياته كله وطمس معالم كل ما عاشه قبلها. كيف

للقب الذي تعلم الرقص والطيران بعد عجز السنين أن يكتفي
اليوم بأمل أن يندمل الجرح قريباً؟ كيف لعين اغتسلت في نور
عينها أن تتلوث بعد اليوم بالنظر لعيون شاردة فارغة
مستهلكة؟ كيف لأنف شم أزكى أنواع البخور أن يعود لشم
عوادم السيارات وجيف الحيوانات الملقاة على جانب الطريق؟
أي ملمس سيطفئ عطش لسانه الذي كان يلحق بطنها وجبينها؟

نزل من الهضبة وكأنه نجم مترهل يهوي في ثقب أسود لا
يسمح لبذرة من ضوء أن تمر خلاله. كان يسير كالمجنون
يطعنه الخوف ويركله اليأس عبر المقابر. فجأة شم نفس رائحة
اليوم الأول الذي التقى فيه بباستيت. جلبت عودة حاسة الشم
عليه بعض التوازن. نظر حوله فرأى الضريح ذا البوابة
الحديدية على يساره. سمع نفس الأغنية قادمة من المقام:

لا نوم ولا دمع في عينيا

ما خلاش الفراق فيا

نسيت النوم وأحلامه

نسيت لياليه وأيامه

وبين الليل وآلامه

وبين الخوف وأوهامه

باخاف عليك... وباخاف تنساني

والشوق إليك على طول صحابي.

قفز بكل ما أصابه من جنون إلى داخل الضريح وراح ينظر إلى كل ركن فيه. لم يكن في المكان سوى حراسه ورجل يرتدي جلبابًا أخضر وقف يقرأ الفاتحة أمام قبر أم كلثوم. تجاهل كشري الرجل ودعائه وانكفأ فوق القبر على نفس البقعة التي نامت باستتيت فوقها وراح يشم ما تبقى على الرخام من آثارها. راح يصلي صلاة تشبه مواء قطة تلد:

"يا باستتيت الكبرى.. يا إلهة الحب والخير.. يا حارسة مصر وشعبها وقططها.. جنتك بلا قربان. ولكنني اليوم مثل قط ميت محنط، فاعتبريني قربانك.. حبيبتي، التي تحمل اسمك وتقدس مقامك، تاهت مني.. روحي غابت عني.. لا تتركيني وحدي في ظلمة خوفي.. انثري النور في طريقي حتى أرى حبيبتي.. لقد عشت حيواتي كلها أبحث عنها، فكيف أفقدها بعد كل هذا الانتظار! عندي حب كبير وعطاء لا ينقطع، لمن أهبه بعدها؟ يا صاحبة الحكمة.. ردِّي إليَّ حبيبتي وخذي ما شئت.. لا أريد منك ولا من الحياة أي شيء بعد ذلك.. فقط أريد نظرة واحدة من عينيها!"

فقد كشري وعيه لدقائق ثم أفاق وراح يحملق في اللاشيء. خرج مترنحًا وخائب الأمل من باب الضريح.. راح يشق طريقه بين المقابر وهو يهمس لنفسه "منذ متى كانت الآلهة تنصت لأوجاعنا؟".

سمع كشري صوتًا قادمًا من اللامكان لكنه يزلزل المقابر:
"منذ صرت تستمع إلى قلبك!"

التفت يمينًا ويسارًا كي يعرف مصدر الصوت. فجأة رأى قطة سوداء كبيرة تجلس فوق إحدى المقابر وتدير ظهرها له. اقترب كشري منها وقد زادت دقات قلبه ونادى:
"باستيت الكبرى".

وما إن نطق باسمها حتى اختفت. ظن أن جنون الحزن أو حرارة الشمس الشديدة أفسدا رأسه. استدار فرأى القطة الإلهة خلفه من جديد، تجلس على مقبرة أخرى، فاقترب منها. قالت القطة بكبرياء:

- ابق مكانك!

- أريد أن أرى حبيبتي.. حتى ولو مرة وحيدة أخيرة.. فقط أريد أن تكون بخير.

- كنت أظن أنك تخطيت طريقة تفكير البشر المحدودة وما ينتظرونه من الإله. يبدو أن النقصان أعادك خطوات إلى الوراء كأنك لم تتعلم شيئاً من كل رحلاتك السابقة. مهمتي كانت فقط أن أضعك على طريق الحياة ثم أن أرافقك في رحلة عودتك الأخيرة، لا أن أبحث لك عن مفقوداتك.

- أنا أتألم والألم يكاد يقتلني.

- تطيبب جراحك وتخفيف الألمك ليس من مهمتي أيضاً.

- ألسن إلهة الحب؟

- نعم.

- ألا تريدان أن تنقذي حيي؟

- لا أحد يستطيع أن ينفذ الحب. الحب ليس في خطر. الحب يصطفيك وينفذك أنت إن رأى فيك خيرًا.

- إذا كان الحب هو المنقذ، وإذا كان هو الدواء الوحيد لكل أمراض العالم، فكيف يشقى من يحب بحبه؟
- أنت لا تشقى بحبك، بل بفكرك وخوفك وتوقعاتك وغضبك.
الحب ليس دواءً مسكنًا، بل مطهرًا. الحب لا يقبل في قلبك شريكًا غيره. لا طمع ولا خوف ولا غيرة ولا غضب ولا حب تملك. لو طهرت قلبك من كل ما سوى الحب، ستجده حاضرًا، لأنه هو أصل كل شيء. لو حرثت تربة قلبك ونقيتها من الأعشاب الضارة، سيزرع الحب فيك حديقة زهوره. لو حفرت في قلبك مجرى لنهر الحب، سيتدفق داخلك بلا انقطاع. لو صار الحب كل شيء في حياتك، لوهبك الحب كل ما تريد من حياتك!

- أريد حبيبتي!

- إن ما تريده يريديك.

- لكني ما أردت يومًا أن أفقدها.

- إن كنت فقدتها فقد أردت ذلك. إن كنت تتألم الآن فأنت قد أردت ألمك وسعيت إليه. لا تنس أنك من طلبت كل جرح في جسدك من قبل وهرولت نحوه وتركته يحدث.

- أليس للآلهة دور في ذلك؟ ما دور القدر؟

- الآلهة وهبتك روحها ومجدها وتركتك تخوض الطريق وحدك. والقدر شريكك. أفكارك تتحول لاختيارات، واختياراتك تتحول لأفعال، وأفعالك تتحول لعادات، وعاداتك تصبح شخصيتك، وشخصيتك تصبح قدرك. قدرك يعرف ما تفكر به فيسبقك إليه بخطوة وينتظرك هناك. أنت تقرر الطريق والقدر

يدرس معنى طريقك وهدفه، وبناءً على ذلك يقرر الحدث.
ولكن الكلمة الأخيرة لك، لأنك تقرر كيف تتعامل مع الحدث.
- ولكن قرار القدر هذه المرة كان متعسفًا. كنت على استعداد
أن أتحمّل أي بلاء إلا أن أفقد حبيبتي. فلماذا اختار القدر ذلك
بالذات؟

- اسأل القدر؟

- وأين أجده؟

- في نفس المكان الذي فيه حبيبتك.

- لماذا ترددين عليّ بالألغاز؟ لم أشعر أنني غبي وبليد مثل اليوم.

لماذا تصعب الأمور عليّ هكذا؟

- أنت الذي تصعب الأمور على نفسك.

- لماذا تديرين ظهرك لي إذًا؟

- أنت الذي يدير ظهره لا أنا.

نظر كشري حوله فاكتشف أن باستيت تجلس خلفه بالفعل. هز

رأسه وهو لا يكاد يصدق حاسة واحدة من حواسه.

- لماذا أتيت إلى هنا؟ ألتسخري من قلة حيلتي وتستمعي

بألمي؟

- إن كنت تسيء الظن بي فأنت تسيء الظن بنفسك. أنت جزء

مني. أنت لي مثل النهر من البحر. أنا جزؤك الباقي وأنت

جزئي المسافر. أنا أبقى لتسافر أنت، وأنت تسافر لأبقى أنا

ولتجدد مياهي. إن كنت تظن أنك أنت وأنا شيئان منفصلان فما

زال طريق المعرفة أمامك طويل.

- أين حبيبتي؟

-
- حيث أنت .
- أنا تائه ومشتت .
- بدأت تضع رجلك على أول الطريق من جديد .
- ماذا تقصدين؟
- اذهب وابحث عن نفسك! جَمِّع أجزاءك المشتتة! وفي المكان الذي ستكون فيه ملتصقًا بذاتك، حتمًا ستجد أيضًا هناك حبيبتك .
- كيف؟
- في المكان الذي ستكتشف فيه أنك أنت وحبيبتك نفس الروح، لن تكون تائهًا بعدها. حيث تنتهي الازدواجية ينتهي الضياع .
- وفي المكان الذي ينتهي فيه ضياعك ستجد حبيبتك .
- أين هذا المكان؟ أعطيني إشارة!
- أنا لا أَلعب معك لعبة الغمضة. لا يمكنني أن أساعدك. أنت أدري بشئون حبك أكثر مني. لو كان حبك قويًا بما يكفي فأنت لا تحتاج إليّ .
- ربما هي تحتاجك .
- لا.. هي لا تحتاج سوى حبك .
- إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا تأتيين بها إليّ أو تأخذيني إليها؟
من الواضح أنك تعرفين مكانها!
- أنت تكرر نفسك. وهذا لن يساعدك .
- أكاد أن أفقد عقلي!
- افقده! ربما عقلك هو الذي يقف عقبة في الطريق بينك وبين حبيبتك! كل ما أستطيع أن أقوله لك أن من يحب يترك علامات في الطريق يرشد بها حبيبه إلى مكانه. يترك شيئًا من رائحته

أو من ألوانه المفضلة على جوانب الطريق. اذهب وفتش عن رائحتها.

- كنت أفتش عن رائحتها منذ بدأ النهار.
- يبدو أنها كانت البداية الصحيحة.. فقد قادتك رائحتها إليك.
الضريح وقادك الضريح للصلاة. والصلاة جاءت بي إليك.
رغم أنني دائماً معك ولا أحتاج إلى صلاتك. أنت الذي يحتاج الاتصال حين تصلي. الاتصال مع صوتك الذي هو صوتي.
ومع رائحتها التي هي طريقك. اذهب وواصل البحث، ولا تسترشد بشيء إلا بقلبك وبرائحة حبيبتك!
- لكن حبيبتني لها روائح كثيرة.

- بالضبط. لها ١٦ رائحة. اذهب واجمع روائحها من كل أركان المدينة. وحين يكتمل الـ"كيفي" احرقه ليلة اكتمال القمر. لو كان إيمانك بحبك قوياً بما يكفي فسوف تستطيع أن تحرك الجبل وتصل إلى حبيبتك. لو حرقت الـ"كيفي" في اليوم الصحيح سيحدث ذلك. أنت محظوظ على فكرة. باقي ١٦ يوماً على اكتمال القمر. يعني أن اليوم هو اليوم المناسب لتبدأ في جمع مكونات الـ"كيفي".

- الـ"كيفي"؟ ما هذا؟ سأل كشري باندهاش.
- معقول؟ هل نسيت بهذه السهولة؟ لقد كانت وظيفتك يوماً ما صناعة الـ"كيفي" قالت باستيت الكبرى وقد علت وجهها ابتسامة غير معهودة.

انتابت كشري دوخة شديدة وشعر بالأرض تهتز تحت أقدامه. أخذته الذاكرة إلى قدس أقداس معبد فرعوني. رأى نفسه راهباً

حليق الشعر يحمل صندوقًا خشبيًا أخرج منه سبع حبات من اللبان المرّ. شم الحبات السبع وهو مغمض العينين ثم وضعها في يده لعدة دقائق حتى بللها عرقه، ثم وضع الحبات في فمه وبللها بلعابه ثم صنع منها كرة صغيرة وضعها في إناء من الفخار وهو يتلو تعويذة الميلاد من كتاب الموتى:

"أستيقظ في الظلام لأن الطيور ترفرف بأجنحتها وأوراق الأشجار ترقص فوق أغصانها. هذا هو يوم مولدي. هذا هو اليوم الأول لي على هذه الأرض وسوف تتبعه أيام كثيرة. الأسود تزار فوق المعبد والأرض تزلزل زلزالها. لكن لا داعي للقلق. كل ما في الأمر أن الغد يحرس اليوم من شرور الأمس".

فتح كشرى عينيه وهو يهمس "اللبان المرّ" هرول مسرعًا دون أن يودع إلهته التي لطالما كان يحلم بلقائها طوال حياته كلها، وتوجه إلى خان الخليلي.

دخلت عواطف إلى غرفة رشا وقالت لها: "عندي مفاجأة حلوة ليكي". ضغطت بيدها على زر تشغيل ريموت التلفزيون. رأت مسرحًا كبيرًا في وسطه دائرة حمراء وأمامه أربعة كراسٍ حمراء تدير ظهورها للمسرح. دخلت نورا المسرح ووقفت في قلب الدائرة الحمراء وهي تحكم قبضتها على طائر باستيت الأزرق. اتسعت عينا رشا من الدهشة وهي تنظر للتلفزيون ثم إلى عواطف ثم إلى التلفزيون. أعطت نورا إشارة البدء للموسيقى بإبهامها بينما أشرف يقف خلف الكواليس ويرسل قبلة عبر الهواء لابنته. حين بدأت الموسيقى همس أحد أعضاء لجنة التحكيم لجارته: "الأطلال.. أغنية صعبة كثير". أغلقت نورا عينيها وبدأت في الغناء:

"لست أنساك وقد أغريتني
بفمٍ عذب المناجاة رقيق
ويدٍ تمتد نحوي..
كيدٍ من خلال الموج مُدَّت لغريق
وبريقًا يظمأ الساري له
أين في عينيك دِيَاك اليريق".

ضغط أحد أعضاء لجنة التحكيم على زر كرسيه فاستدار لنورا وتبعه الثلاثة الآخرون وهم يصفقون بشدة، لكن نورا لم تنتبه لهم وواصلت أغنياتها:

"يا حبيبًا زرت يوماً أيكه

طائر الشوق يغني ألمي
لك إبطاء المذل المنعم
وتجلي القادر المحتكم
وحنيني لك يكوي أضلعي
والثواني جمرات في دمي"

صفق الجمهور بشدة لأداء نورا الجميل. صفقت رشا وهي تنتفض على سريرها و صفقت عواطف وعيناها تملأهما الدموع. صفق أشرف وهو يشعر بالفخر والسعادة. وقف أعضاء لجنة التحكيم جميعًا وجروا باتجاه نورا وأشادوا بجمال صوتها وإحساسها العالي، وراح كل واحد منهم يحاول إقناعها بالانضمام لفريقه. طالبت نورا أعضاء اللجنة بالعودة إلى مقاعدهم.

- أشكركم على كلامكم الرقيق. أنا سعيدة اني جيت هنا النهارده. بس في الحقيقة أنا ما جيتش هنا عشان ادخل المسابقة. أنا جيت عشان أغني لماما المريضة وقطتي اللي غايبة عني من أسابيع. ما لاقيتش طريقة أقول لهم هما الاتنين إنني باحبهم غير كدا. معنديش شيء أقدمه لهم إلا الحب دا. قالت نورا وهي تضم الطائر الأزرق إلى صدرها.

ظهرت علامات الحيرة وخيبة الأمل على وجوه أعضاء لجنة التحكيم، بينما وقف الجمهور وراح يصفق لنورا لدقائق. لم تنتبه عواطف أن رشا تركت سريرها ومشت باتجاه التليفزيون وهي تنادي باكية: يا حبيبتى.. يا حبيبتى.

هرولت عواطف إلى خارج الغرفة وهي تنادي: يا دكتور
عماد.. الست رشنا صوتها رجع.

مر خمسة عشر يوماً واستطاع كشري أن يجمع خمسة عشر مكوناً من مكونات الـ"كيفي". صنع من المكونات كرة كبيرة عجنها بمخالبه وخبأها بجوار المذبح في دير القديس سمعان في الجبل. كان يبني في العراء داخل القارب الأزرق فوق الدير، وكان ينزل للقاهرة كل صباح ليبحث عن مكون جديد من مكونات الكيفي: توابل ولبان وجذور من العطارين، عسل من خلية نحل فوق شجرة، زنجبيل من مقهى الفيشاوي، وخشب من حي الزبالين، ونعناع من حديقة بيت قديم بجوار السلخانة، ولوتس من القرية الفرعونية بالمنيل، وحنّة من شجرة خلف بيت المرأة العجوز التي أنقذت باستيت من القبط المتوحشة في مدينة الموتى. كان يمزج كل مكون بفمه ثم يضيفه للكرة التي كانت تكبر كل يوم في الدير وهو يرتل تعويذات سحرية من كتاب الموتى مع إضافة كل مكون جديد عند منتصف الليل.

جمع كل المكونات في كرة بللها بلعابه وعجنها بمخالبه. وخبأها في دير القديس سمعان. منذ أن رحلت باستيت وهو ينام في القارب الأزرق فوق الدير وينظر للنجوم ويسبح في عيني حبيته الغائبة.

لكنه جلس في اليوم السادس عشر وهو يفكر في معضلة كبيرة. كان يتذكر جيداً رائحة وشكل المكون الأخير لكنه نسي تماماً اسمه وأين يجده. أمضى اليوم كله بين السوق وحي الزبالين وكارفور ومدينة الموتى لكنه لم يجده. جلس فوق الدير يراقب جموع المصلين الذين جاءوا للاحتفال بعيد القيامة وبدأوا يجلسون في المدرج المفتوح. نظر إلى يساره فوجد الشمس تغرب خلف الأهرامات بينما يشرق القمر من خلف أسوار

القاهرة القديمة. صوت أذان المغرب من المآذن وصوت
الأجراس من الدير وقرص القمر الأحمر في ليلة تمامه سكبت
الخوف في قلب كشري أن ينتصف الليل قبل أن يكتمل
الـ"كفي". أيعقل أنه جاب كل أركان القاهرة ليجمع روائح
حبيته وفي النهاية سيفشل لأنه لا يعرف أين يجد المكون
الأخير؟ لم يكن يريد أن يتخيل كيف سيكون حاله وهو يجلس
في ذات القارب في صباح اليوم التالي وهو لا يعلم أين حبيته
ومتى سيلتقي بها. عاد ليرتل بعض التعويذات من كتاب
الموتى:

يا عين حورس قوديني..

أنا غير موجود هنا..

وغير موجود هناك.

قرر أن يعود إلى كل الشوارع التي مشى فيها مع باستيت
ليبحث عن تلك الرائحة. طاف حول مسجد السيدة نفيسة
ومسجد ابن الفارض ومشى بين المقابر وهو يرتل:

إن وجهي هو وجه رع

وعيني هما عينا حتحور

إن أذني هما أذنا أوب

إن أنفي هو أنف خنت خاس

إن شفتي هما شففا أنوبيس
وضروسي هي ضروس إيزيس
إن ظهري هو ظهر ست
وعضوي الذكري هو عضو أوزيريس
إن لحمي هو لحم خرعحا
وبطني هو بطن سخمت
إن أردافي هي أرداف حورس
وساقاي هما ساقا بتاح
إن أصابع قدمي هي أصابع أقدام الصقور الحية
لا يوجد عضو من جسدي لا ينتسب إلى الآلهة
أنا رع الذي يشرق كل يوم على وجه العالم
لن يستطيع أحد أن يأسرني بإمساكي من ذراعي
أنا من يخرج سالمًا واسمه مجهول
أنا الأمس الذي يرى ملايين السنين.

جلست رشا تراقب نورا وهي تلعب البيانو في المنزل بينما أشرف يراقبهما بابتسامة جميلة.

- والله البيت كان مضلم من غيرك يا رشا. ألف حمد الله على سلامتك يا حبيبتي!

- يا سلام! وعائزني أصدقك؟ تلاقيك كنت فرحان وبتقول بناقص نكد! قالت وهي تبتسم.

- لا والله! حتى أسألي نورا. كنا زي اليتامى من غيرك.

- طيب بطّل بكش بقى وقول لي! انت عارف ان النهاردة مولد السيدة زينب؟ سألت رشا.

- بجد؟ وانتِ عرفتِ منين؟

- سمعتهم في التليفزيون بيقولوا إن مولد السيدة جاي السنة دي مع عيد القيامة. ايه؟ ناوي تروح؟

- والله نفسي أروح. بس مش عايز أسيبك لوحدي.

- طيب وليه ما تاخذنيش معاك؟ أكيد هتبقى ليلة ظريفة.

- بس انتِ لسه تعبانة.

- لا أنا كويسة ومحتاجة أغير هوا. وكمان فيه حاجة غريبة بتشدني اني أروح المولد. حاسة ان.....

ترددت رشا قليلاً ثم صمتت وهي تخبأ ارتباكها. لكن أشرف كان يلحّ ليعرف ما تحسه رشا بالضبط.

- حاسة ان السيدة زينب بتندهني!

اتسعت عينا أشرف وأحس بالأرض تدور من تحته وراح يفكر في هذه الجملة الغريبة التي لم يكن يتخيل أنها من الممكن أن تخرج من بين شفقتي زوجته. أخذ هذه الجملة على محمل الجد وسأل نفسه لماذا تنادي السيدة زينب رشا التي لا تطيق حي

السيدة والتي لا علاقة لها بالروحانيات؟ ولماذا لا تناديه هو وهو من تربى بجوار المقام ويتمنى العودة إلى جذوره؟ من أين يأتي هذا النداء؟ وكيف يصل؟ ولماذا يسمعه البعض ولا يسمعه آخرون؟ هل للإغماء الطويلة التي تعرضت لها رشا علاقة بذلك؟ ماذا جرى لرأسها حين فقدت صوتها؟ وماذا يجب أن يحدث لصوته ولرأسه كي يسمع نفس النداء؟ لاحظ أشرف بعد صمتٍ طويلٍ وحملقة في اللاشيء أن رشا تنتظر إليه وتنتظر منه أي رد فعل، فحاول أن يخرج من الموقف بمزحة:

- معقولة؟ رشا وجدي عايزة تروح السيدة زينب؟ بإرادتها؟
هاهاهاهاها.

- بطلّ غلاسة وقوم غير هدومك. نورا، غيّري هدومك يا حبيبتي عشان نازلين.
قام أشرف وارتدى سترته بينما دخلت نورا لغرفتها وارتدت بنطالها الجينز وتي شيرت.

مشى كشري بين المقابر هزيل الجسد، ثقيل الخطوات، مشوش
الذهن. كان يمر على قطط يأكلون أو يتقاتلون، دون أن
يلاحظهم أو حتى يلاحظ وجوده هو. كانت مجموعة من الأسئلة
تسيطر عليه حتى تحول كل كيانه إلى علامة استفهام: أين يجد
المكون الأخير؟ ولماذا عليه أن يجمع ستة عشر مكوناً مادياً
كي تلاقي روحه روح حبيبته من جديد؟ لماذا عليه أن يلهث
خلف توابل وجذور في أيام متتالية بينما كان من الأحرى به أن
يركض نحو حبيبته في اليوم الأول من غيابها؟ كانت هذه
الأسئلة أشبه بجدار عازل يقطع عنه الحياة بتفاصيلها الصغيرة
والدقة اللامتناهية التي صنعت هذا الكون بوفرته وعظمته.
وبينما هو غارق في تساؤلاته سمع صوت باستيت الكبرى
قادمًا من بعيد:

- دعني أخبرك قصة الخلق كما لم تسمعها من قبل!
- أنا لا أريد سماع قصص أو حكايات. أريد ردًا على سؤالي:
كيف أصل إلى حبيبتي؟
- ما زال الغضب يتحكم بك. وهذا يحجبك عن رؤية الشيء
الأكثر وضوحًا في حياتك.
- أنا غاضب لأن الشيء الأكثر وضوحًا في حياتي غائب عني.
غاضب لأنك تعلمين أين حبيبتي لكنك لا تخبرينني.
- مشكلتك أنك تريد جوابًا مباشرًا لسؤال مباشر، وهذا يعيقك
عن استشفاف المعنى من السياق. محدوديتك تأتي من غضبك.
وغضبك هو المسافة بينك وبين ما تريد. وما تريده عظيم جدًا
لا يأتي في قوالب وأجوبة جاهزة.
- لا أفهم.

- استمع إلى قصة الكون كي تفهم. لأنك لن تفهم نفسك إلا إذا فهمت الكون، ولن تفهم الكون إلا إذا فهمت نفسك. هذا ما قلته أنت يومًا لحبيبتك في هذه المقابر. لقد كنت تعلمها الكثير عن الحب والمعرفة. انظر كيف أنه من السهل أن تردد المعرفة، ولكن من الصعب أن تعمل بها. لن تحصل على الإجابة الكبيرة إلا إذا تخليت عن السؤال الصغير. أخبرتك من قبل أن حبيبتك غابت لأنك أيضًا غائب. مشكلتك هي مشكلة معظم البشر: أنهم يعيشون إما في الماضي أو فيما يريدون، وهو المستقبل، ولا يتوقفون عن الحراك المحموم بين الوهمين. ولكن ماضيهم كان حاضرًا في يوم ما، وحاضرهم سيصبح مستقبلًا عما قريب. ولكنهم يقاومون الحضور في الآن وهنا. وهذا يحول عمرهم كله إلى خوف وانتظار. يفرون من الآن ثم يشتكون أن الحياة قصيرة.

- احكِ لي قصة الكون إذا!

- كان نور الله الأزلي محتجبًا خلف عصور من دخان، وكان يحن إلى وجوه يسطع عليها، كي يرى نفسه في مرآتها. ثم جاءت كلمة الله الأولى وكانت تحن إلى شفاه تنطق بها. وقف الجبل الصخري يناطح الريح والعراء، وكان يحن لنفوس تقطع من لحمه أحجارًا يبني بها الناس مساكن لأجسادهم. البحر أعياه الانتظار وهو يشتاقي إلى شمس تُبخر مياهه لتصير سحابًا ولسفن يحمل أوجاعها وأفراحها فوق جسده. وكان السحاب مشتاقًا لحقول وأشجار يمطرها بخيره ومحبتة. وكانت الأشجار تتوق لبشر يستظلون بظلالها ويأكلون ثمارها ويصنعون من جذوعها سفنًا ترد الجميل للبحر. وكان البشر يحنون إلى

أصلهم، فأبحروا بزوارقهم إلى ما وراء الخلود، وعرّفوا الحب والدموع وراحوا يعبدون الشمس والنهر والمرأة والقطة. وُلِدَ الكون من رِجَم الحنين. انشطر النور الأول إلى ألوان تنشر أسرار الجمال، فكانت شمسًا ونجومًا ولوحات. وانشطرت الكلمة الأولى إلى كلماتٍ تخلق المعنى وتبحث عن السياق، فكانت كتبًا وقصائد وصلوات. صعد البحر إلى السماء وصار سحابًا. نزل السحاب وصار عباءة من جليد تغطي قمم الجبال في الشتاء، ثم صار الجليد جداول تسقط إلى الوديان في الربيع. انطلقت الجداول تبحث عن النهر، وانطلق النهر بكل ما أوتي من حنين باتجاه البحر ليكتمل القوس، ولتبدأ الرحلة من جديد. إن ذلك الذي يسميه الناس "خلقًا" لم يكن سوي حبّ يبحث عن ذاته في دائرة، أو يرقص حولها في مسار حلزوني.. مرات ومرات.

مر الزمان وتشتتت الكلمات ووقعت في مصيدة الفكر. بهتت الألوان وصارت تبارز ظلالها بلا هدف. عمّ الظلام وضرب الجهل في جسد الأرض كالسرطان. تشعبت الطرقات، فصارت متاهات. بنى الناس من جسد الجبل مساكن لأجسادهم وسجوتًا لأرواحهم ومقابر لوعيمهم، وبنى القراصنة من جذوع الأشجار سفنًا لترويع من استأمنوا البحر على حياتهم وأمتعتهم. نسي الناس أنهم جاءوا من نفس النور ونفس البحر ونفس التراب وصاروا يقتتلون من أجل صيد أو بئر أو حدّ أو عقيدة. حبسوا النهر خلف سدّ عالٍ فصار بلا طمي ولا فيضان. ضاع الإيمان وضلّت الصلوات طريقها إلى الله. تشردت القطط وغرقت القاهرة تحت بحر من البيوت والمقابر والحكايات. اندثرت

الأرواح وبقيت مطمورة تحت طبقات كثيفة من الخوف واللامبالاة والنسيان. نسي أبناء النور من أين جاءوا وراحوا يفتشون عن النجوم في مناجم الذهب وعن الحب في شاشات الهواتف.

ولكن – وبرغم كل هذا التشرذم والانسحاق – ظل جزء من رئة القاهرة يتنفس. ظلت المآذن وأبراج الكنائس تشير بأصابعها إلى السماء لتذكّر أبناء المدينة بأصلهم. ظل نصف الجبل الشامخ الذي يحتضن الأولياء والقديسين يتوق إلى عناق نصفه المنبسط الذي يتستر على الأشقياء وقطاع الطرق. ظلت الألوان على جدران المدينة تحلم بالعودة إلى رحم النور الأول. وظل النيل يستقبل ماء السماء بامتنانٍ مسافر يسرع الخطى نحو وطنه الأول، حتى ولو كان طريقه مليئاً بالعقبات والسدود. ظلت الأرواح القديمة تحرس شوارع أم المدن وتحمل شعلة حنين البعض إلى الكل. ظلت تتغذى على وريد الحقيقة المدفون تحت أنقاض المدينة وعلى ملايين الجثث وعصور من المجد والكذب. الأرواح القديمة قديمة لأنها قادمة من فجر التاريخ، من لحظة الانشطار الكبرى. وهي تتعارف على بعضها بلا جهد ولا مرشد، لأنها قديمة. لأنها تتذكر، لأنها تعرف من أين جاءت. لأنها تنبض بروح الله. ولأن طريق عودتها إليه ليس منه عودة ولا فيه انحدار.

أضواء بكل الألوان على هيئة ماندالا تغطي مسجد السيدة زينب. الميدان وشوارعه الجانبية جميعاً في قبضة النور. منصة صغيرة تتراقص فوقها عرائس. أطفال يشترتون بطاطا وذرة مشوية، وآخرون يشترتون شعر البنات. رجل يرقص مع ثعبان وسط جموع غفيرة من البشر على أنغام الناي. رشا تشتري قناع شيطان من امرأة عجوز بجوار المسجد وتضعه على وجهها. رجل خمسيني يفزقز ترمساً ويبصق القشرة على الأرض بوتيرة واحدة. خلف المراجيح وقفت امرأة صغيرة ترتدي جلباب رجل وعمامة وراحت تغني "الروح هامت في مرآة جمالك. وفرد تجلى فأضحى جميلاً". التقت حولها جموع كبيرة من الرجال والنساء وراحوا يرقصون وهم يحركون رءوسهم يميناً وشمالاً. كان بعضهم يغني معها "الروح هامت" بينما بعضهم يردد "الله حي.. الله حي".

- يعني ايه ذكر يا بابا؟ سألت نورا وهي تراقب الجموع الهائمة في الرقص.

- الصوفيين بيعتقدوا إن الإنسان بيتولد وجواه معرفة وأسرار الكون كله. الطفل وهو لسه ما بيتكلمش، بيتذكر المعرفة دي، وبعدين بينساها لما يكبر ولما أفكاره تبتدي تتحكم فيه. لما الإنسان بيذكر ربنا، بينسى كل شيء دنيوي فبيبتدي يتذكر المعرفة القديمة دي. عشان كذا مذكور في القرآن "واذكر ربك إذا نسيت" وبيقول "ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم". والصوفيين بيعملوا حلقات ذكر وبيرقصوا فيها زي ما انت شايفة كذا عشان يتذكروا المعرفة القديمة وعشان يتصلوا بربنا.

"الروح هامت.. الروح هامت"

واصلت المنشدة تكرار نفس الجملة مرات ومرات وهي تضع يدها على وجهها. كان جسدها ينتفض مع كل جملة وكانت الدموع تسيل من عينيها، والجموع من حولها تبكي معها بحرقة وهي تردد "الروح هامت" و"الله حي" حتى سقط بعضهم على الأرض مرتجفًا.

- الناس جاية مليانة دموع، ونفسها تعيط. قالت رشا لأشرف لكنها لم تجده بجوارها.

كان يقف وسط الجموع يطوح رأسه يمينًا وشمالًا ويردد "الروح هامت". كانت نورا تراقب المنشدة وهي تغني بصوتٍ باكٍ وكأن روحها لسان نار يمتد لكل الراقصين حولها فيشعلهم بكاءً حتى تحول ميدان السيدة زينب كله إلى كرة كبيرة من نار العشق والحنين والرجاء.

دخل كشري المولد وراح يشم كل منصات بيع العطور والمأكولات، لكنه لم يجد ما جاء ليبحث عنه. نظر إلى صبي وفتاة يتأرجحان في أرجوحتين على هيئة مركبتين. كانا يندفعان معًا للأمام ثم يرجعان معًا إلى الخلف. تمنى كشري أن يستقل هذه المركب ويطير بها فوق الميدان وفوق القاهرة كلها ليبحث عن باستيت. وفي هذه اللحظة حمل تيار الريح الذي سببه المراحيج الرائحة المنشودة إلى أنفه. كانت الرائحة على بعد خطوات منه. قفز كشري من مكانه وراح يتحرك مثل الثعبان بين أحذية الراقصين في حلقة الذكر حتى وصل إلى حذاء نورا فنظر إليها من أسفل وهو يموء. نزلت نورا على ركبتها وراحت تمسح رأس كشري بيدها وهي تنظر لعينيها: "عايز

ايه؟ انت جعان؟" وضع كشري مخالبه على رجل نورا وقفز إلى جيب بنطالها وراح يشمه وهو يموء بشدة. وضعت نورا يدها في جيبها وأخرجت منه ثلاث حبات مصطكة من التي اشتراها لها والدها منذ أسابيع. مدت يدها بالحبات لفم كشري وهي مندهشة: "عايز مستكة؟". التقط كشري الحبات بلسانه وأغمض عينيه وهو يتذوقها، ثم فتح عينيه ونظر لنورا وكأنه ينظر لباستيت. كانت نظرة كلها امتنان ومحبة. أسرع كشري الخطى ليخرج من المولد، ظلت نورا جاثية على ركبتيها وقالت لأمها التي كانت تراقب المشهد باستغراب شديد: "ماما.. باستيت بخير". نزعت رشا القناع عن وجهها وابتسمت. عاد أشرف من حلقة الرقص بعد فترة وعلى عينيه سحابة كأنه أفاق للتو من نوم عميق. سألته نورا: "ايه يا بابا كنت فين؟ انت رحت الباطنية ولآيه؟" ضحك الجميع وهموا بمغادرة المولد.

كان القط العاشق يسرع الخطى ليصل إلى الدير قبل أن ينتصف الليل. دخل الدير فوجد المصلين لا يزالون بالداخل يغنون: "المسيح قام من بين الأموات ووطأ الموت بالموت، ووهب الحياة للذين في القبور". تسلل كالثعبان من بين أحذيتهم وذهب إلى الركن الذي خبأ فيه كرة الـ"كيفي" بجوار المذبح وأضاف إليها المصطكة وعجنها قليلاً بمخالبه، وجلس في الركن يرتل:

إن عين حورس البراقة قادمة
ستأتي شعلته بعد أن تترك السماء خلف رع

أنا الذي سأخطفها
وأنا الذي سأثير بها طريقي
إن عين حورس حية في شراييني.

نظر كشري باتجاه القسيس فوجد إناءً نحاسياً به جمرات
مستعرة. جرى كشري نحو إناء النار وألقى كرة الكيفي فوقه
وهو يرتل:

أيتها النار المشعة كالإطار من حول رع
أنا ابن الباكية على أوزيريس!
أفسحي لي الطريق لظهر زورق الشمس
لكي أظهر في قرصه وأشع بضياته
أفسحوا لي الطريق لأمرّ من بينكم، فأنا سليل الآلهة
أنا سيد المعرفة
وسلامي من سلامة رع.

تصاعد دخان أزرق كثيف من المبخرة، توقف المصلون عن
الغناء وراحوا ينظرون إلى الدخان وقد خيمت الدهشة
والصمت على المكان. صاح القسيس "كيريا ليسون..
كيريا ليسون" فردد المؤمنون خلفه، بينما كشري يتسلل بين
أحذية المصلين ويتتبع سحابة الدخان التي خرجت من الدبر
وقادته إلى الزورق الأزرق فوق قمة الجبل. جلس في المركب

يراقب القمر الذي غطى المدينة بنوره وسحابة الدخان تصنع
الدوائر حول الزورق، وراح يرتل من كتاب الموتى:

أعرف جبل باخو الذي تتكئ عليه السماء
هو جبل من العقيق الأحمر،
تجلس فوق رأسه حَيَّة طولها مئة ذراع
أول ثلاث أذرع منها من حجر النار
اسم الحية: جالسة فوق جبله وراقدة في ناره!
تحوّل الحية نظرها وقت المساء باتجاه رع
فتتوقف المركب عن الإبحار ويندهش البحارة
ينحني ست فوق الحية ويقول لها:
سأضربك بقدمي حتى تواصل المركب الإبحار
أنت يا من تنظرين إلى بعيد،
أغلقي عينيك وغطي رأسك حتى لا يصيبك مكروه
أنا صانع السحر
أنا عين رع التي ستحرك مركب الشمس باتجاه الأبدية.

هبّت ريح قوية على الجبل. غطت سحابة كبيرة القمر والمدينة
من تحته. عانق صوت الرعد أصوات المصلين في الدير وهم
يرددون "كيرياليسون". هطلت أمطار غزيرة كما لم ترها
القاهرة من قبل. سقطت السماء على الجبل وسال الجبل باتجاه

النيل وصار الجميع كياناً واحداً بفعل المطر. انزلق الزورق الذي يجلس فيه كشري باتجاه النهر وهو لا يدري إن كان القارب يبحر أم يطير. كان الظلام شديداً فلا يرى سوى ضوء البرق، وكان السكون مخيمًا فلا يسمع سوى دقات قلبه. كانت الزهور والتوابل والقطط والكلاب وجثث المقابر وأجولة القمح وأكياس القمامة تسبح بجوار قاربه في النهر، لكنه لم يكن يشم سوى سحابة الكيفي التي كانت تسبق قاربه بذراعين. كان الإعصار يزداد شدة وكان الزورق يتخبط بين أمواج عالية بلا مجداف ولا بوصلة. لم يجد كشري صوته، لكن صوتاً ما كان يرتل بداخله:

لم أقتل ولم أمر بقتل

لم أسرق ولم أمر بسرقة

لم أذنس خبز الآلهة

لم أتسبب في جوع أحد

لم أتسبب في دموع أحد

لم أحرم الأطفال من الرضاعة

لم أحرم الماشية من عشها

لم أضع الفخاخ للعصافير

لم ألوث مياه النيل

لم أقم سدًا أمام المياه الجارية

لم أطفئ نارًا متأججة

أنا طاهر ونقي نقاء طائر العنقاء
أنا من رأى اكتمال العين في هليوبوليس
لن يصيبني مكروه في هذه المدينة.

وبرغم المطر والظلام والريح الشديدة كان اليقين يملأ قلب
كشري أن المركب تسير في الاتجاه الصحيح. كان يشم رائحة
باستيت وكأنها تجلس بجواره في المركب، ولكنه لم يكن يرى
شيئاً. كانت رائحتها مثل غطاء دافئ في ليلة باردة. كان يفكر
بآخر عناق لهما في السينما وأحس أنه امتداد لعناقات مبتورة
بينهما في حيوات أخرى. كان يتذكر إحساس كل لقاء جمعهما
عبر التاريخ لكنه لم يتذكر أية تفاصيل. كان عليه أن يرتل
تعويذات سحرية أخرى من كتاب الموتى كي يمر قاربه بسلام،
لكن ترنيمة واحدة كانت تملأ قلبه. ترنيمة لا توجد في كتاب ولم
يغنىها قبله أحد، لكن لسانه راح يرددّها كأنه لم يعرف غيرها:
الحب هو الوجود الوحيد والقدرة الوحيدة، لا شيء سواه. وأنا الروح
الخالد الطاهر الحر الذي يتعدى الجسد والحواس والفكر. الحب بحرٌ
واسعٌ من السلام، وأنا فيه غارق. الحب فوقى.. الحب تحتي.. الحب عن
يمني.. الحب عن يساري.. الحب أمامي.. الحب ورائي.. وبالحب أنا كل
السلام.

فاضت عيناه من الدمع ثم راح يهمس بكلمة واحدة مئات
المرات:
"باستيت.. باستيت.. باستيت".

كانت هي الكلمة الوحيدة القادرة على تجميع أجزاءه الممزقة، بل كانت قادرة على ربط آلاف السنين وآلاف النجوم والمجرات والكائنات وآلاف اللقاءات والحكايات بخيط واحد. كانت الكلمة التي جاء من أجلها إلى الوجود، التي من أجلها ضحك ومن أجلها بكى ومن أجلها أبحر إلى المجهول. كلمة كان الحب وحده منبعها ومقصدها ودليلها. نسي كل التعويضات، ونسي الآلهة والنيل والسماء وراح يردد مع كل نبضة من قلبه ومع كل دمعة من دموعه: باستيت.. باستيت.. باستيت...

فجأة هدأت الرياح والأمواج وتوقفت الأمطار. وسمع كشري صوت باستيت قادمًا من مكان بعيد، لكنه كان واضحًا مثل أذان الفجر:

حبيبي، لا أعرف من أين أبدأ، فأنا ما اعتدت أن أخاطبك بالكلمات. ولكن حدث الكثير وأحتاج أن أحكي لك القصة من أولها. أعرف أنك لست في حاجة إلى شرح أو توضيح، ولكني أنا التي أحتاج أن أرمم كل هذا التاريخ، كي أظل صامدة وكي أحميك من بطش الذاكرة. فإنك لو تذكرت واقعة دون الأخرى ستقع في فخ الخوف والظنون. قد يقتلك الأسى أو الندم. فهذه القصة لا يمكن أن تُحكى إلا مرة واحدة بجميع فصولها وتقلباتها.

أثرت أن أبتعد لأنني بدأت أتذكر ما صار بيننا في حياتنا السابقة. كنت أخاف عليك من أن ترى آلام الحزن التي تكدست في عيني وأنا أمسك بأول خيط من خيوط التاريخ الذي جمعنا.

كنت أخشى أن أنكسر أمامك، لأنني أعرف أن انكساري كان حتمًا سيكسرِك. ابتعدتُ لكني ما تركتُك لحظة. أثرتُ أن أصمت حتى لا تجرح أذنيك حشرة البكاء في كلماتي. صمتُ حتى أتمكن من لملمة ذاتي قبل أن يشردك ضياعها. صمتُ، لكني لم أتوقف أبدًا عن الحديث إليك.

إن ما حدث كثير.. كثير جدًا. أكبر من أن يستوعبه رأسي الصغير وقلبي المكلوم. وأنا أحتاج أن أسرده عليك بهدوء، ولهذا كان عليّ أن أعود إلى هنا، إلى حيث بدأ كل شيء، كي أتذكر ما كان كله وأحاول أن أفهم لماذا حدث كل ما حدث.

فتحت زيارتنا لموميאות أجدادنا خندقًا ضيقًا للذاكرة الموجهة. ابتلعتني الخندق إلى بهو معبد باستيت الجميل في شرق الدلتا، حيث كانت كل ألوان الحياة تتراقص على الجدران والأعمدة، وحيث كانت الإلهة الأم تبسط أجنحتها على الأرض. ولكن شاء القدر أن أول زمان يجمعني بك، أو هكذا كنت أظن، كان زمان جوع وقحط وجريمة. القصة تختلف بعض الشيء عن تلك التي سمعتها في المتحف.

كنتُ امرأة لفلاح بسيط. كان يحبني بجنون وكنت مفتونة به طول الوقت. لم نفترق أبدًا، كنا في الحقل معًا وفي السوق معًا. لم نكن نريد من الحياة سوى القرب من بعضنا. ولكن فيضان النيل كان يغرق الأرض كل عام لعدة شهور، فلا يجد الفلاحون رزقًا إلا في العمل في بناء معبد باستيت الجديد. لم يكن زوجي ولا أنا نعبد القطط، ولكن ملوكننا اختاروا لنا آلهتنا فأطعناهم. أصرَّ الكهنة على إنهاء بناء المعبد في ذلك العام قبل انتهاء موسم الفيضان، كي يتلقوا القرابين مع أول موسم للحصاد. كان

زوجي يعمل ليل نهار وكان يعود منهكاً بقطعة خبز وكوب من البيرة نفتسمها قبل أن ينام قليلاً ثم يعود إلى عمله ذات يوم سمعت طرقات شديدة على الباب. فتحت فرأيت عمالاً يحملون زوجي على أعناقهم. جاءوا به إليّ جثة هامدة. سقط حجر على رأسه وقتله قبل اكتمال بناء المعبد بسنة واحدة. انهرت فوق جثته الهامدة أبكي دموعاً ودمًا. حاول العمال مواساتي وقالوا إنه سقط شهيداً للمعبودة باستيت وهذا أكبر شرف يمكن لفلاح أن يناله. لكني صرت أكره باستيت ومعبدها، وصرت أكره كل القبط. وفي كل مرة أنظر إلى موضع زوجي الخالي في الفراش كانت تتملكني الرغبة في الانتقام.

افتتح الكهنة المعبد وطالبوا الناس بزيارته وتقديم القرابين. حبوب وذهب وقطة محنطة كانوا يشترونها من الكهنة بأبهظ الأثمان. تورط الكهنة في ربط القرابين بموميאות القبط، فقد زاد الطلب على الموميאות أكثر من القبط التي كانت تموت. والقبط لا تموت على قارعة الطريق كباقي الكائنات ولكنها تحتجب حين تشعر باقتراب أجلها وتحفر قبورها بنفسها في الخفاء. فأصبح الكهنة يشترون القبط الميتة من الشعب بأسعار زهيدة كي يحنطوها ويبيعوها بأسعار أكبر ثم يتلقونها قرابين مرة أخرى من المؤمنين الغافلين الذين كانوا يفعلون ذلك من فرط إيمانهم الذي اخترعه لهم آخرون.

وكنت أنت يا حبيبي قطاً وديعاً، تعيش في بيت الجيران. كان عمرك يناهز السنة، وكنت أعرفك منذ ميلادك، فقد ولدت في نفس اليوم الذي مات فيه زوجي، وكنت تذكرني أن هوس الناس بالقبط هو سبب غيابه عني. كنت لا أطيق رؤيتك ولكنك

كنت دائماً تحوم حول بيتي وتنظر إليّ بحنان. كنت مرة مريضة وزادت عليّ الحمى. رأيتك تدخل من بابي وتلقي فأراً مبيتاً فوق صدري. صرختُ بشدة ونهرتك، فخرجت في هدوء. وبعدها بأسابيع دخلت من بابي المفتوح ونظرت إليّ نظرة لم أفهمها. كان الجوع يتملكني. شيء ما قال لي: "اقتليه وببيعيه للمعبد واشتري بثمنه خبزاً". لم أكن أدري إذا كان جوعي أذهب عقلي، أم سلّت رغبتني في الانتقام تفكيري تماماً. لم أفكر في الأمر. حملتك بين يدي وأنت تنظر إليّ بعطف أمّ تقدم وجبة لابنتها. وضعتك على حجر وثبتت يديّ حول عنقك وأحكمت قبضتي عليه. كنت لا تزال تنظر إليّ برضا وتسليم، ولم تصدر منك أية مقاومة. كانت عيناك تقولان لي: "اقتليني فأنت أولى الناس بدمي!". لم أطق كل هذا الحب الذي كان يشع من عينيك. جذبتك من رجلك وضربت رأسك عدة مرات فوق الحجر حتى استراح قلبك إلى الأبد، أو هكذا كنت أظن. حملتك إلى المعبد وكلّي يرتجف وقبضت ثمنك قمحاً يسد جوع بعض أيام الشتاء. فقط في طريق رجوعي للبيت أدركت أنني أعرف نظراتك جيداً، لقد كنت زوجي الذي عاد إلى الحياة في ثوب قط كي يكون بقربي وكى يواسيني، ولكن رغبتني في الانتقام أعمت بصري وبصيرتي فقتلتك. ظننت أن الانتحار سيريحني فأشعلت النار في جسدي وتبعتك.

قبل أن تغمض عينيك في السينما نظرت إليّ نفس النظرة التي كانت آخر نظراتك لي قبل أن تموت، والتي كانت دائماً آخر نظراتك إليّ قبل أن تنام بجواري ورائحة الأرض والحقول وبخور الكيفي تعطر جسديك. ملأني الرعب. لم أكن خائفة من

انتقامك. كنت خائفة من أن تعرف أنني قتلتك يوماً ما فتتألم لي
ألمًا أشد من ألم رأسك الذي هشمته بيدي. كنت أخاف عليك من
ألم أشد من ألم غيابي عنك. كنت أخاف أن تتوقف عن حبي. لا،
لم يكن هذا ما يخيفني. كنت أخاف أن تتوقف عن الحب. فقد
رأيتك أخيرًا وأنت تحيا بهذا الحب. أخيرًا أخذت ما تستحقه من
هذه الحياة القاسية. قررت أن أبتعد عنك حتى لا يغادر الحب
قلبك وذهبت أبحث عن إجابات لما حدث في ذلك العام وما
حدث بعده.

كنت أعلم أنك ستتألم لغيابي، ولكني كنت أعلم أنه سيكون ألمًا
من الحب وللحب. وهذا الألم لا يُخشى منه لأنه ألم بيني ولا
يهدم، يهدي ولا يشنت. جئتُ إلى تل بسطا لا أدري كيف، فأنا
لم أعود أن أخطو خطوة دون أن تكون أنت مرشدي. حفرت
بأصابعي قبرًا بين أنقاض المعبد الذي هجره التاريخ. كنت
أحتاج إلى حفرة مظلمة تمامًا كي أكون وحدي معك، وكي
أقيس بداخلها ما تبقى بداخلي من نور. رحت أنصت إلى قلبك
الذي ينبض في فتذكرت أنني رجعت إلى الحياة بعد أن قتلتك،
عدت في صورة رجل وصرت كبير كهنة معبد باستيت. كنت
أحاول أن أفتح قلبي لحب باستيت، ولكن لم يكن الحب هو
سبيلي في هذه الحياة. فإن عذاب الضمير والرغبة في أن أكفر
عن ذنبي هما اللذان عادا بي إلى الحياة من جديد، لكنني لم أكن
أذكر أي ذنب اقترفت. كنت أشفق على القطط من جرائم القتل
التي كثرت على هامش تجارة القرابين، فقد وصل طمع الناس
والكهنة إلى حد أن القطط كادت تنقرض من مصر تمامًا.
فأصدرت قرارًا بالحكم بالإعدام على كل من يقتل قطة حتى

ولو بطريق الخطأ. لم أكن أفهم سر العدالة بعد، طننت أن عقاب القتل بالقتل هو الحل. وعدت أنت إلى الحياة كفلاح وتزوجت امرأة جميلة كانت وفية وحنوناً، لكنها لم تكن تفهم خرائط الحزن في عينيك. كنتما تأتيان إلى المعبد فأطيل النظر إليكما وأبارككما دون أن أدري أي رابط يربطني بكما. كنت أغدق عليكما بالقمح والـ"كيفي"، وكنتما تغدقان عليّ بابتساماتكما النقية.

وفي حياة أخرى كنت أنت الراهب الذي يصنع البخور وكنت أنا راقصة المعبد التي تدور حولك وأنت تنتثر دخان الـ"كيفي" في الأجواء. كانت نظراتك الخجول تسحرني أكثر من سحر الكيفي، لكنني ما كنت أجروء على الاقتراب منك. في حيوات أخرى كنا رجلاً وامرأة يلتقيان مرة واحدة في العمر وينظران لبعضهما نظرة قصيرة ثم يذهبان كل في طريق دون أن ينطقا بكلمة. كنا نتبادل الأدوار: مرة كنت أنا الأنثى ومرة أنت. مرة واحدة كنا رجلين، كنت صديقك المقرب. كنت أنت تحب النساء وتكثر من معاشرتهن، أما أنا فكنت أعشقتك أنت، لكنني لم أفش سر حبي لك، كي لا يعكر شيء صفو قربي منك. كان يكفيني أنك موجود وأنت صديقي، ولكنني كنت أتألم لأنك لا تجد ضالتك في أحضان نساء تنسى رائحتهن بمجرد مغادرة فرشهن.

ومرة كنت أنت طائرًا يخلق في السماء وأنا شجرة مصطكة مغروسة في الأرض قرب البحر. كنت أراقبك وأنت تكاد تلمس السماء بجناحيك اللذين كانا أكثر ازرقاقًا من البحر ومن السماء معًا، ثم أراقبك وأنت تبتعد حتى يبتلعك الأفق. وكنت أراقبك

وأنت تقترب وتحوم حولي. كان كل غصن من أغصاني يرقص ويلوح لك. وكانت الدموع تسيل من جذعي، فيأتي الفلاحون والصيادون ويتداووا بها. كنت أحلم بك وأنت تحط على أغصاني وتبني عشك فوق ضلوعي أو تتذوق مرارة دموعي. ولكنك لم تفعل. وذات مرة ملأت السماء بتموجاتك وأنت تنظر إليّ وكأنك تودعني. ابتلعك الأفق في هذا اليوم ولم تعد. ذهبت أنت، ولكني بقيت شجرة لمئة عام أخرى. وقفت صامدة أنتظر منك زيارة أو خبراً. كنت أَسْأَلُ أينك الآن وأي فضاء يأوبك. تعودّ جذعي على سفك دموع الحنين عليك، وتعودت أغصاني أن ترقص لكل خفقان جناح طائر يمر، لكنك لم تمر. وذات يوم أخبرتني الريح أنك عدت مرة أخرى وأنت قريب جداً، لكنها لم تخبرني في أي صورة. كنت أتخيل أنك أصبحت الزهرة البرية في الحقل الذي كنت أفف فيه، أو النحلة التي كانت تحوم حولي من وقت لآخر. أو ربما أصبحت غصناً من أغصاني أو جذراً من جذوري. ربما كنت أنت الماء الذي يتحدى الجاذبية ويصعد من جذوري ليروي أغصاني وأوراقه. لم أتلق إجابة على تساؤلاتي، لكن كان يكفي أن أعرف أننا نحيا في نفس الكون ونتنفس نفس الهواء. كان يكفي أن أعرف أنك موجود، لأن مجرد وجودك بالنسبة إليّ هو غاية الحياة.

وبعد مرور مائة عام جفت دموعي وأغصاني وجاء الفلاح ليحتمني بمنشار كي يستدفئ بناري في الشتاء. لم أكن أبالي، فقد كان هذا البتر يجهزني لرحلتي القادمة كي أراك. أخذ الفلاح جسدي ومضى به إلى النار، وبقيت جذوري ضاربة في الأرض تعلوها مائة دائرة من دوائر عمري عارية على سطح

جذعي المبتور، لتشهد السماء على سنوات اشتياقي إليك. راح
جسدي وبقيت جذوري ودوائر عشقي صامدة، ولكن روحي
ذهبت وواصلت رحلة البحث عنك!
في حياة أخرى كنت أمك. ولدتك وأخذوك مني يوم مولدك.
وفي حياتي التالية كنت أولد لأبحث عنك فلا أجدك، فأموت
كمداً وأعود لأبحث عنك من جديد. ذات مرة صرت مغنية
مشهورة ورحت أملاً الدنيا بأعذب الأغنيات عن الغياب
والحنين علّ واحدة منها تصيب أذنك أو تمس قلبك. كنت كلما
قلت آآه في أغنية يذوب قلبي. غنيت كثيراً، لكن كل أغنية من
أغنياتك كانت تحمل رسالة واحدة: "بعيد عنك حياتي عذاب".
لم أكن أعلم أنني أتتبع صوتي أنا حين قفزت من السيارة وتتبع
رائحة الأغنية التي قادتنني إليك. كنت أنا صاحبة النداء وكنت
أنا من لبي النداء. هذا هو الإيمان الذي تحدثنا عنه ذات مرة يا
حبيبي!

أما الحياة قبل الأخيرة فكانت الأجل والأقسى. إذ كنا نعيش معاً
في نفس البيت الأزرق الجميل. كنت أشم أنفاسك وأستظل
بدفء عينيك. كنت أبي وكنت طفلتك المدللة. كنا نلعب معاً
ونضحك معاً وكنا نطيل النظر في أعين بعضنا كعاشقين لا
نصيب لهما من الدنيا إلا هذه النظرات. حتى اكتشفت أنوثتي
فجأة وكنت أحاول أن أخبرها منك كي أظل طفلتك. ولكنك
دخلت مرة إلى غرفتي وأنا عارية أمشط شعري فوقفت لحظة
تراقب جسدي الطري بنظرات مثل آخر نظرة نظرتها إليّ في
السينما قبل أن أرحل. تركت الغرفة وأغلقت الباب خلفك
بعنف، وكأنك تعاقب نفسك أنك كنت تعشقني وأنا ابنتك. لم

تنظر إلى عيني بعدها أبدًا. وكاد هذا يقتلني. كانت كل مرة تمر عليّ فيها دون أن تنظر إليّ مثل سهم مسموم ترشقه في صدري. لم أجد لوجودي معنى وأنت تتجنبني، بل تخاف حتى من الاقتراب مني. كنت أفهم الأعراف التي تحرم على البنت أن تعشق أباهما عشقها لرجلها، لكن لم يكن الأمر بيدي.

صرتُ امرأة ورحت أبحث عن رجل يحمل رائحتك. كان يضحك مثلك وكان نفس الحزن يكحلّ عينيه مثلك. كان بيته قريباً من بيتنا. كنا نهرب للجبل ونشاهد القاهرة من فوق ونحن ننصت لأغنيات أم كلثوم التي كان يعشقها وأعشقها. وذات مرة كنا نستمع إليها وهي تشدو "ربما تجمعنا أقدارنا ذات يوم بعدما عزّ اللقاء. فإذا أنكر خل خله وتلاقينا لقاء الغرباء. لا تقل شئنا فإن الحظ شاء". صرت أبكي بحرقة وأنا أسمع صوتها، صوتي، يردد مأساة تاريخنا. راح ذلك الفتى يجفف دموعي ويلمس وجنتي بحنان، ثم انهال عليّ تقييلاً ثم نزع ملابسي وأنا لا أقاومه. تركته يفعل ما يريد. كنت أخاف أن أنهره. كنت أخاف أن يتوقف عن النظر إلى عيني.

حين انتفخت بطني انهار العالم كله فوق رأسك يا أبي، يا حبيبي. كنت تصرخ صرخات مكتومة وكنت تنتفض كدجاجة مذبوحة، كنت تضرب رأسك في جدار البيت كالمجنون. كنت تبكي حتى صارت عيناك حفرتين من الدم. دموع غضب ودموع خيبة أمل ودموع عاشق غيران. قصصت شعري الطويل وحرقته أمامي. كنت أعرف أنك تفعل ذلك كي لا تضربني. خفتُ عليك من الفضيحة ومن البكاء. فكرت في الانتحار، لكنني كنت أريدك أنت أن تقتلني. لم أكن أعلم من أين

جاء إصراري أن تقتلني أنتَ بدلاً من أن أريحك أنا بالانتحار.
لم أكن أريدك أن تنتقم مني، ولكني كنت أصرّ أن تنتظر إلى
عيني مرة أخرى بكل هذا الحب الذي عهدته فيهما. وقد فعلت.
كانت عيناك تعانقان روحي في نفس اللحظة التي كانت يدك
تلتف حول عنقي. اليوم صرت أعرف من أين جاء هذا
الإصرار.

كان عليك أن تكون قاتلي بعد أن قتلتك أنا. كان عليك أن تكون
كل شيء لي مثلما كنت كل شيء لك: أبي وأمي وزوجي
وحبيبي الذي لا يعرف أنه حبيبي. لقد كنتَ دومًا كل شيء في
حياتي طوال كل هذه الحيات. ولكن كل هذه الحيات لا
تضاهي يومًا واحدًا من الأيام التي قضيتها معك في المرة
الأخيرة. فقد كنت لروحي روحًا، ولصمتي دويًا، وللسجين
المتوحد مع سجنه بداخلي كنت مفتاح الأمل.

جنّت إلى هنا وحفرت قبرًا قادمي إلى خندق تحت أنقاض
المعبد في تل بسطا. كانت موميوات القطط متراسة على
أرفف محفورة في سرداب الزمن. رأيت جسدك في الظلام
ورأيت جسدي بجواره. كنا نغمض أعيننا وندير ظهورنا
لبعضنا ولكننا كنا نرى بعضنا. كنا ننبض بنفس القلب ونتغذى
من ذات الوريد. كان يمرحنا نفس الرحم. نعم.. كنا توأمين يا
حبيبي. كنا قطين متلاصقين في أول ميلاد لنا. توأمين افترقا
يوم ميلادهما قبل أن يتعانقا في النور. ظل أحدهما يشقى في
سجن كي ينعم الآخر بالحرية. كان أحدهما يجوع ويموت كي

يجد الآخر خبزه. كان على أحدنا أن يكون قاتلاً حتى يعطي الآخر فرصة لحياة جديدة تقربه من الحب. كان على أحدنا أن ينتشر في ثرثرة المدن ويقاسي أبشع أنواع الجروح كي يعيش الآخر في صمت ويتأمل العالم من نافذة. كان على أحدنا أن يفقد صوته كي يقوي الآخر حباله الصوتية ويصدر الصرخة الكبرى. كان على أحدنا أن يفقد عقله كي يسمع الآخر الصرخة ويلبي النداء. كان على أحدنا أن يبقى ساكناً كي يقفز الآخر. وها أنا قد قفزت يا حبيبي. مرة كي أدخل عالمك وألبي نداءك الذي هو ندائي، ومرة حين غادرته لأناديك إلى عالمي، وقد كان هذا نداؤك. عالمي الكبير الذي كنت فيه يوماً نصفي ويوماً ضحيتي ويوماً حبيبي ويوماً ابني ويوماً أبي. أما اليوم فأنت عالمي كله. أنت حياتي التي لم تكن لتحدث لولا حزن عينيك وسخاء جرحك، ولولا صمودي في البحث عنك. فقدت بيتي كي أجدك، وكي أبني لك بيتاً لا يشردك منه أحد. تركتك يا حبيبي نائماً وكلّي يقيناً أنك ستبني. أنا اليوم وكلّي يقيناً أنك ستبني النداء. أرى مركبك تقترب مني مع شروق الشمس وأشم رائحتك المشتاقة للامتزاج مع رائحتي. أنتظر يا حبيبي هنا في هذا القبر الدامس الظلام، وكلّي إيماناً أن قاربك سيهتدي إلي ميناوي بنفس النور الذي رسم طريقنا منذ البداية. سأنتظرك بكل ما أوتي العالم من حبٍّ ولهفة ووجع. لن أغلق عيني إلا وأنت في حضني. لن أتركك أبداً بعد اليوم! تعال يا حبيبي لأعمرك وتعمرني! تعال لنكتمل ببعضنا، ولأعانقك كما لم يعرف أحدنا العناق من قبل! تعال لأسكب

ذاتي فوق ذاتك وأفنى في تقبيل عينيك كل الحيوانات التي حُرمت
فيها منك!

البداية